

بسم الله الرحمن الرحيم

(RECAP)

2276
942
389

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . ربنا لا تزغ قلوبنا بعد
اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب . ربنا انك من تدخل النار فقد
أخزيته وما للظالمين من أنصار . ربنا اننا معنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا
بربكم فآمننا . ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفرهنا سمياتنا وتقشفنا عن الأبرار . ربنا
وأتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تحزننا يوم القيامة انك لا تخاف الميعاد . وصل اللهم
وسلم على سيدنا محمد الذى اجتمعت منه بين خلقك لأن يكون مستودعا لأسرارك
وناشرا لتعاليمك واسطة بينك وبين عبادك يهديهم بنورك الأقدس الى
سعادتهم الدنيوية والأخروية . ربنا أسبغ عليه سحاب تذكرك وتشریفك
وبلغه المقام المحمود الذى وعدته به وألهمنا السير على هدية وهدى أصحابه وهبنا
اللهم نوراً نفهم به ما أوحيت اليه من محكم كلامك وجلس خطابك حتى
نستوجب رضاه ونستحق نعماته . واهد اللهم مثل هذه الصلاة والسلام على
آله وأصحابه وتابعيه الى يوم الدين انك سميع الدعاء واسع العطاء آمين
✽ أما بعد ✽ فإنه لا يخفى على كل شرفى الآن أن العلاقة بين الشرق والغرب قد
وصلت خصوصاً فى الجزء الأخير من هذا القرن الى درجة لم يسبق لها مثيل
فى التاريخ وان مصالح الطرفين قد اشتبكت تبعاً لذلك اشتباهاً كالجواب أن يتعارف
الغريقان تعارفاً يحمو ما سبق من التناكر الذى كانت نتائجه دائماً ضاراً ليران
الشقاق بينهما مما يدعو الى التقاطع المتنافى لطالب المدينة المستقبلية . نعم ان
الاتصال بين الشرق والغرب أصبح عظيماً وسيأخذ فى التزايد يوماً بعد يوم حتى
تصير بلاد المشرق كما عابرة عن معرض عام تعرض فيه أنواع البضائع والصناعات
وتجف فيه الناس من كافة الملل واللغات . ونحن هنا لا نريد أن نبحث فيما اذا كان
فى هذا الامتزاج الشديد مضرّة لأحد الطرفين أو فيما اذا كان مفيداً لكليهما

بل ذلك مما لا دخل فيه له كتابنا هذا والسكافة تريد أن تقوم بهمل مخصوص
 لا مناص منه على كل حال . ما هو ذلك العمل وما وجه كونه ضروريا لا مناص منه
 ذلك العمل هو تفهيم الأوربيين حقيقة الدين الاسلامي وما هيته واثبات أنه ضامن
 للإنسان نيل السعادة في كافل له راحة الحياتين . وأما وجه كونه ضروريا
 لا مناص منه فهو أن الغربيين أصبحوا يجدونهم ونشاطهم أصحاب السلطان
 والنفوذ على معظم العالم الاسلامي وما داموا جاهلين بحقيقة الاسلام ومعتقدين
 ما يهذي به بعض كتابهم ضده فانهم لا يستطيعون طبعه أن يزوا في ديانة يحكمونهم
 الا بعتا تقيلا على عقولهم وحملات ضمنية المداركهم فلا يقر ونهم عليه الاحتراما
 للاحاساس فقط راجين من العلوم العصرية والمعارف الطبيعية القيام
 بتبذير في المستقبل . نقول بتمام الحرية ان الأوربيين معذرون في تصديق
 التهم ضد الاسلام والمسلمين ولهم الحق في العمل ضدها ماداموا لا يرون أمام أعينهم
 من مظاهر الدين الا البدع التي اخترعها صغار العقول وقبلها منهم العامة وزادوا
 عليها أشكالا من الاوهام والاضاليل تنفر منها الطباع البشرية وتنافي أصول المدينية
 . كيف نرجو أن يفهم الأوربيون حقيقة ديننا وانه الملاك الوحيد للعادات كلها
 حالة كونهم لا يعرفون من دين الاسلام الا ما يرونه أمام أعينهم كل يوم مثل
 الصباح في الطرقات خلف الطبول وتحت الرايات ومثل اقتراف أشد المنكرات
 المتنافية للادب والعقل في الموالد التي تقام في كثير من نقاط القطر المصري ومثل
 الاجتماع الى حلقات كبيرة على مرأى ومسمع من ألوف المتفرجين والصباح
 الشديد بالذكرم الخيال عينا ويسارا . ومثل ومثل مما لو أردنا ذكره لاطال بنا
 الكلام ونخرجنا عن المقام . فهل والحالة هذه نستطيع أن ننكر على من يعيب
 ديننا أو يلصقه بتهائمات التهم . أليسوا معذورين في هذا الفهم السيئ مادام
 يحفر هذه المنكرات ويتفرج عليها معتلا هذه الأمة بدون أن يجدوا في أنفسهم
 مبالا الى رأب هذا الصدع المتفاقم الذي لم يقصص على جرّعوامنا الى المنكرات

والاثام فقط بل الى الاخلال أيضا بعبادة التوحيد والنبية وهو الامر الذي
لوقا صلت جنوره في العقول البسيطة صعب جدا اقتلعه منها

نسمع كل جمعة على المنابر قائلا يقول لم يبق من الاسلام الا اسمه ولا من القرآن
الا رسمه وانك لم تسمع قط بأن عاقلا قام يبحث بدقة وثبات عن أسباب هذا
الاضمحلال الشديد الذي وقعت فيه الأمة الاسلاميه من منذ قرون كثيرة
• أما والعلم لو بحث باحث عن علل هذا المبوط الهائل بعد ذلك الصعود
السريع ما وجدها الا في ترك السنن واتباع البدع • ولو كان المجال أوسع من
هذا لأرينا المطالع أن البدعة الواحدة قد يتبعها بحملة عوامل شرية لا يراها الا
من ينظر للأشياء بمنظار العلم وان هذه العوامل متى رسيخت قواعدها وثبتت
دهانها انبنى عليها داء من أدواء الامم تظهر أعراضه وآثاره لكل مشاهد ولو كان هو
نفسه كما منا كون الارقم في حجره ولا يظهر الا ريثما يأنس عن حوله العجز عن ملاحظاته
لهذه الاسباب كاهصار الشرق المتنور ملقيا على عاتقه واجبان • أولها ما تفهم
العالم أجمع ان الدين الاسلامي فضلا عن كونه بريثا من الاضاليل التي ينسبها
اليه بعض الكتبة ومنزها عما يفعل العامة على مرأى من المتفرجين فإنه ناموس
السعادة الحقيقية وملاك المدنية الصادقة حتى ينبعثوا الى احترامه ومحبته كما
يحترمه ويجب به بعض الفلاسفة الكبار الذين درسوه واعتقدوه • هذا الواجب
يلقى على عاتق أبناء هذه الأمة الذين أسعدهم الجسد بتعلم اللغات الاجنبية
• ثانيها أن يسعى عقلاء هذه الأمة في نحو البدع التي غص بها العالم الاسلامي
وصارت نقطة سوداء في جبين الشرق وموضوع استهزاء كافة من عنده مسكة
من العقل • هذا الواجب أشد لزوما من الواجب الاول وعليه ينبغي صلاح
هذه الأمة أو فسادها فعمسنا ثلاثة أرباع قرن قبل أن يستفحل الداء ويعز الدواء
والا فالعاقبة وخيمة والمسؤولية عظيمة • قال عليه الصلاة والسلام (لتأمرن
بالعرف وتنهتن عن المنكر أو ليساكن الله عليكم فتنا كقطع الليل المظلم
تدع الحليم حيرانا)

هذه الافكار كانت تجيش في خاطري من منذ أربعة سنين وانما ذلك في سن
البدا في العمل للوطن فلم أر أفضل في خدمته من هذه الوجهة فقاربت من حينها
بهمة لا تعرف الملل على درس ما يوهلني الى فهم حقيقة الاسلام حتى آنست من
نفسى بعض القوة على القيام ببعض هذا الواجب الاقدس فابتدأت اعمالى
بتأليف كتاب باللغة الفرنسية نعت فيه عن الاسلام كل تهمة ألصقتها به
المفترون وأثبت بالدلائل الحسية وبالاقتناع على البدانة العلمية انه روح المدنية
الحقيقية وعين أمانة النفس البشرية ونهاية ما ترمى اليه القوة العقلية وان كل
رقى يحصل في العالم الانساني ليس هو الا تقرب الى الديانة المحمدية . ولم أكد
أنهى من تأليفه حتى بعثنى نفسى الى ترجمته الى لغتنا العربية الشريفة لكي
أكون قدفت ببعض الواجبين المطلوبين في آن واحد

على انى كلفت نفسى تجشم المصاعب في هذا العمل لا بقصد اتخاذ اشتغالاتى فيه
تسليية لى على ما أضعت من وظيفة أو شهرة . كلا بل غرضى الوحيد من هذا العمل
هو إقامة الحج العلمية على أن دين الاسلام ليس بالدين الذى يتناساه ذوره أو
يلوى الكشح عنه متبعوه . وانه ليس بالدين الذى تعارضه العلوم العصرية
والحقائق الفلسفية بل هى مما تزده تثمينا وتعميكا وتزيد متبعه ايماناً و يقيناً
. وانه كان يجب أن يجد من طلاب العلوم الجديدة أنصاراً أولى قوّة ومكانة لان
يرى منهم اعراضاً وابتعاداً يدلان الرائي على ما الاسلام برى منه وبعبارة
بعدها عنه .

قد كفى المسكين اعراضاً عن دوائهم واغصاء على دوائهم فلا يكونوا كالأبله الذى
يحمل الدرباق الشافى في ردفه فيغفل عنه ثم يفكر فيه منتظراً أن تعطر عليه هائب
الاهام من سماء الاحلام غيمة يطهره هبابه ويشفيه من أوصابه . أليس يعار
على متوّرّى هذه الامانة تبقى حقائق دين الله محببة في مكاتبهم في مطاوى مجلداتهم
وهم مغرورون بزخارف افكار البشر مما يسمونه بالنظريات الفلسفية حالة كون
النسبة بين هذه الافكار كلها وبين مآلديهم آيات الحكمه التى أسدلو عليها أستار

النسيان هي أكبر عا لا يقدر عا بين أفكار الصبيان وبين أفكار حكيم مارس
الايام وخبر الانام وهاش مائتي عام . ألا تنوق نفس شرقى متنورا الى الوقوف على
ذلك الامر الاعظم والناموس الاقوم الذى ساد حيننا قصيرا على سكان جزيرة العرب
على ما كان بهم من شظف ووحشية فأخرجهم من ظلمات الجهالة والذائل الى أنوار
المدنية والفضائل . مافائدة العالوم اذ لم تحجب اليها معاشر شيبان المشرق أن
تكتنه هذا السر العجيب والتطور الغريب الذى لو طبقناه على ما لدينام المعارف
المدرسية لانتطيع أن نذكر كل وجه عام . هل فيما قرأناه من التاريخ ما يدلنا
على امكان تطورا مة بأسرها واتقاهما من حالة الوحشية الى المدنية فى مدة لا تتجاوز
الربع قرن . اللهم لا .

ما هو ذلك التطور المدهش الذى دخلت فيه الامة العربية فى مدة ثلاث وعشرين
سنة . هل هو أمر هادى يستطيع الانسان أن يدرك سره ويكتنه أمره بجولة
فكره أو القاء نظره . كانت الامة العربية قبل الاسلام كايعلها كل انسان
منقسمة الى قبائل عديدة وفصائل شتى كلها متوارثة الاحقاد والصفات متأصلة
الاحن والدفائن . واقعة فيما بينها فى حروب دموية وغارات جاهلية . لا وحدة تلم
شعنتهم ولا جامعة توحد كلمتهم وكانوا واقعين من جهة الدين فى أخس أنواع
الوثنية ومن جهة العادات فى أنسكاهاضر رابالحياة المدنية . فلا قانون يصلح من
جاهلهم ولا قاعدة يبنى عليها ضمان استقباهم وبالجمله كانوا بيمكان من الاختلال
والفاقة وسوء التربه قنطاهم فيه كل الملوكة الفاتحين مثل بختنصر وقروش
والاسكندر وغيرهم . فماذا كان من أمرهم بعد بعثة سيد الوجود صلى الله عليه
وسلم بخصوبضع وعشرين سنة . كان من أمرهم ان توحدت كلمتهم واتحدت
وجهتهم ووجد فهم قانون يضمن تهذيبهم ويكفل رقيهم وتركوا جميع عادات
آبائهم التى توارثوها وألفوها حتى كادوا أن يعبدوها وخرجوا من ظلمات الوثنية
الى أنوار العقيدة التوحيدية وقاموا من وسط وهادهم ونجدهم بيملون للثقافتين
أنوار المدنية ويؤسسون أركان العدل والانسانيه فى جميع ارجاء المكورة الارضية

وسادوا أغلب عالمها بأفضل أنواع السلطة الاعتدالية وبالجملة صارت دولتهم
دولة العالم بأسره . بينما كان غيرهم يهيم في وديان الجهالة ويضرب في ليلا
الضلالة .

هذا هو التطور الغريب الذي دخلت فيه أمة العرب في سنين قلائل بعد أن كان
قدم في عليها بضعة آلاف عام وهي كما هي لم تترق عما كانت عليه قديماً . هل
بعد هذا يصح أن يتصور ما قل أن هذا الرقي السريع كله حصل بدون قواعد
محكمة وأسس متينة . وهل بعد هذا يصح أن يتصور ما قل أن تلك القواعد
والأسس تشابه ما لفظه أمثال أرسطو وليكورتج وسولون من الحكم البسيطة
والقواعد التي لو أصحلت اليوم شيئاً أفسدت في الغد أشياء كثيرة . كلا . اللهم
إن المسلمين عن أمرار دينهم لمجربون وعن بدائعهم للاحون فهمهم اللهم ميلا إلى
ترييض نفوسهم في حقائق دينك السرمدى وقانونك الأبدى وهب اللهم
بصائرهم قوة تمتعهم من دينهم بما تمتع به آباؤهم الأقدمين انك رحيم
بالمؤمنين .

وهبني اللهم من الثبات والجلد في هذا الموقف الحرج ما يستدخله عجزى وقصورى
عن الموضع في مثل هذا العباب العظيم حتى أؤدى لابناء وطنى خدمة هي أمس
بحياتهم من كل ما عداها وأصلح لرفاههم من كل قاعدة سواها . واجعل
اللهم عالى هذا الصالح لوجهك الكريم نافعا لامة نبيك الفخيم انك واسع
عليم . آمين .

﴿ مقدمات ﴾

قد رأينا أن عهد الكلام على الاسلام بمقدمات ضرورية جدا تنشى للطلالع فكرة
هامة على حالة الانسان وتكاليف الحياة ونواميس الرقى والتأخر الذى تتجاذبه
وطبيعة المنظمات التى تنازعت السلطة على الانسان من قديم الزمان الى

الآن والخلاف الناشئ من زمان مديد بين العلم والدين وغير ذلك حتى لا يكون مطالع كتابنا محتاجا في فهم ما ترى اليه الى بحث ولا تنقيح وليس يستطيع أن يرى بعينه بطريقة حسية أن الاسلام روح المدنية الحقة وأن لا مدنية الا به أو ببعض نصوصه .

هذا وليغفر لي القراء الكرام كثرة استشهادي باقوال علماء أوروبا فاني لم أقصد بذلك أن أستدل بكلامهم على صدق الدين بل قصدى أن أبرهن ان كل النواميس الممدنة التي سادت على أوروبا في القرون الأخيرة فنقلتها من الظلمة الى النور ليست بالنسبة لنواميس الاسلام الا كشعاع من شمس أو قطرة من بحر . فاقول والله المستعان

الانسان

ما هو الانسان . هل هو ذلك الجسم المادى الذى يتقارب به التحليل والتركيب فيتمو ويقتوى ثم لا يدركه الضعف والهرم يموت ويدفن فيستحيل الى تراب تدوسه اقدام . ان كان كذلك فليس هو الا حيوانا بسيطا يفضل له الاسد بقوته والذئب بعظم جثته والقرد بدوده وسرعة حركته ولما كان له من الاهمية في هذا الوجود ما يدل لتنا عليه ماضيه وحاضره . أما ما أريدك لو كان الظاهر عنوان الباطن في كل شئ لكان شأن الانسان في هذه الطبيعة الكثيرة العوامل شأن الريشة الخفيفة بين تيارات الاعاصير الشديدة يدفعه تيار ويرده آخر حتى ينتهى وجوده على أسوأ ما ينتهى اليه وجود الضعيف مع مغالبيه الاقوياء . كلا ان فى الامر لسرا مكنونا ورمزا موصونا كفى العلم به من فائدة تهدينا فى الاستقبال وفى الجرى عليها ضمانة لحسن المآل .

أدرس الانسان من مبداه ثم انظر اليه فى وقتنا الحاضر ترعجبا يذهب بالعقول وبرا تعجز عن اكتشافه الفحول ترى آيات تدهش الافكار وتستوقف

الانظار . ترى ماذا . ترى كائنات ارى الجسم ابن البشره رقيق الحاشيه ضعيف
 الساعد هديم السلاح التي به في هيجاه هذه الحياه وحيد اقربا وقذفه في تيار
 هذا الوجود طر يد اثريدا يرى بعينه الجبال الشام فيفرق من خيالها والغابات
 النيهاء فيذهل من تقلب ظلالها والقبة الزرقاء بنجومها الزهراء فتهميه سمعتها
 ورفعها . ويسمع زئير الضياغم في الغابات فيكاد يصعق منه فرقا او يتميز رهبا
 وهو بين تلك الدهشة والوحشة يوخزه الحر بلفحه والبرد بنفحه ويؤله الجوع
 بجذته والعطش بشدته . هذا حال الانسان في مبداء امره فاذا ترى من حاله
 الآن . ترى ان هذا السكان الضعيف قد قاوم كل هوارض الطبيعة المسلطة
 عليه بجملد وثبات مدهشين وصارعه على قوتها وبطشها مصارعة البطل المغوار
 بقوى ليس في زنده مستترها وجد ليس في جسمه مكره حتى تغلب عليها ولم يكتف
 بذلك بل أسرها أسرا واستخدمها الأمانه وأماله كما يستخدم المالك المنصور اسرا
 الحروب . ترى ذلك السكان على ما به من لين وضعف قد أظهر من ذلك اللين صلابه
 واجهت الجبال الشام فسفتها نسفا وعدت على المصور فسحقته سحقا وتوجهت
 للديد المتين فاذا بته ذوبا وأبدى من ذلك الضعف قوة اقتادت القساور صاغرة بين
 يديه فتراها تخضع اليه وتلهب عند قدميه لتقر عينيه .

هل بعد هذا التدبر العلى يقال ان الانسان هو ذلك الجسم المادى الضعيف . كلا
 بل لا بد أن يكون ذلك الجسم الطينى غلافا لمرمكون ان غاب عنا جوهره فقد دل
 عليه أثره . وذلك المر هو معنى الانسانيه وواهب الميزه للانسان هلى غيره من
 أصناف الحيوان . نعم هذه بديهه لا تحتاج الى اثبات ولكن ماهى تلك المعنى
 الغريبه التى يسكنها فى ذلك الجسم المادى جعلته ملوكا لجميع الكائنات الارضيه
 وساطانا يتصرف فيها تصرف المالك الشرعى فى ملكه .

لو كانت تلك المعنى الانسانيه مما تقع تحت سلطة المشاعر وتنضوى تحت قواعد
 المحسوسات لسهل على الباحث درسه ادرسام دقيق . ثم لو كانت هى من طبيعه
 معنى الحيوانيه محدوده الغايات والانفعالات لكان المعانى لا كتناء أسرارها

لا يكلف نفسه من المشاق ما يربو على ما يبذل الباحثون عن طباع النفس أو
 الميكروبات . ولكن كان أمرها بخلاف ذلك على خط مستقيم . فانظر الى
 الانسان نظرة من تره جامعا للتماقضات جمعيا يصعب معه تحديد خصيصة من
 خصائصه بوجه التحقيق . شاملا للثنا كسات شهولا تضيق عن حصر آثارها
 قاهرة كل تدقيق كأن هذه المعنى الانسانية بحر لا يدرك غوره مسببا للعقول
 ولا تنتهى الى سوا حله خطرات الافكار البعيدة المرامي . اذا نظرت الى الانسان
 من حيثية أوصافه الفطرية فيه فلا تستطيع أن تنتهى الى رابط يربطها ولا
 ناموس يضمها . فينبغي ان ترى رجلا قد عرف قدر الاعتدال وأدرك سر الكمال
 فقام أمياله الى مقياس الروية والتدبر ووزن أعماله بقسطاس العدل والتوسط
 ترى من عيونه رجلا ثانيا يأسا لم يرمعها مطمعا في لذة ولا مطمعا في ثروة
 وكره اليه العمران كراهة حببت اليه سكنى قذات الجبال وحيد اقير الاعلى
 قتيلا ولا تقيرا وأخذ ينال بحبه أن يزيده كراهة في دنياه وأن يكافئه عن ذلك
 برضاه . ثم ترى عن يسار ذلك المعتدل رجلا ثالثا مهتورا الدنيا بلبه سحرا أعماله
 من رؤية الفارق بين المحاسن والمقاصح فأطلق لنفسه هذان الطيش وافتكها من
 قيود العادات والتقاليد وأخذ يميل مع الشهوات حيث يميل ويتقلب مع اللهو حيث
 يتقلب . وبينما ترى رجلا قد نزل عن رتبة الحيوانات جهلا وغباوة حتى كاد أن
 يساوى الحفر جودا وخودا . ترى بازاءه عالما غزير المأذة واسم الاطلاع منهوما
 بكشف الاسرار عن وجوه الاسرار لا يرى اللذة الانظرية يؤسسها أوطاهرة
 طبيعية يدركها . وبينما ترى شخصا استحوذ عليه حب الحياة حتى أوردته موارد
 الجبن الخجل يظن الخيال طالبا يطلبه أو غفر يتأرجحه . ترى تجاهه شجاعا بطربه
 وقع البيض على الخوذ ودوى المدافع في جدران الحصون وبروقه نظير دماء
 الاقران تسيل على الارض كالارحوان . قل لو بعيشك هل يمكن ان نظر الى
 حالة الانسان من حيث قبوله اسائر الاوصاف الممكنة أن يدعى حصرها في قاهرة
 أو ضمها في رابطة واحدة

ليس لامبال الانسان حد فيقف عنده بل كلما وصل الى غاية تاق الى ابعدها ووجد
من نفسه المكنة على بلوغها والقدرة على ادراكها حتى اذا انالها كان فرحه
بحوزها باعاً الى على الاستزادة منها ومصرغاً في هينها كان فيه من قبل
مضى زمن اتم فيه مكتشف امريكا . ومخترع التلغراف والآلة البخارية بالجنون
نظن الناس استحالة ما كانوا يمسون به في الآذان همساً وجاء زمن يقول فيه علماءه
انه سيأتي وقت يكون الفرق فيه بيننا وبين ابناؤه كالفرق بيننا نحن وبين اجس
الحيوانات

هل وقف الطماح بالانسان عند هذا الحد المدهش . كلا ان الطمع الفكري بلغ عند
الانسان مبلغاً نظره الى حالة العلم الآن فلم يرقه شيء فيه وصغر له الطموح عظم ما نال
عقب تلك الجاهالة الاولى فنطق بلسان احد علماء امريكا قائلاً : اننا نعتاز من
اسلافنا في العلم بكوننا جاهلاً . أمامهم فكانوا بعبادة دون انهم يعلمون شيئاً
ليست شعري ما هذه المعنى الانسانية التي تشعربعظمتها وجلالة قدرها للدرجة
لاتعد ما هي فيه الآن الاجاهالة ظلمات فهي تأنف أن تقبض بما وصلت اليه من سائر
الامرار وترى ان امامها غاية لا تحدها الاوهام ولا تصل اليها امرامى الافكار
وامنحن فلا يسعنا به هذا الامعان الا أن نحكم عن بينة بأن الفارق بين الانسان
والحيوان . ليس هو النطق كما قال أرسطو ولا هو التفكير بالقوة كما مال اليه فلاسفة
العرب ولا هو التبدين كما ذهب اليه المسيو كاترفاج بل هو قبول الانسان للترقي
العقلي والاخلاقي الى المالا نهائية . ووقوف الحيوان في درجة لا يتعداها فيه يكون
نسبة الحيوان الى الانسان كنسبة الادراك المحصور الى غير المحصور وشتان ما بين
طرق هذه النسبة

ان كان لابد من الاستشهاد ببول عالم اوروبي في مثل هذه البداهة فإليك ما قاله العلامة
لاروس في دائرة معارفه الكبيرة بعد ان تكلم على رقي الانسان مانصه (ان من التهور
المشين وضع حد لرقى الانسان) وقال المسمور ينان الشهير في كتابه تاريخ الاديان
(اذا اعنت في حال الانسان ووجدته وقتاً من الاوقات يذل وسعته ويسقته فواء

لكني يتوصل الى ادراك السبب الاى لانهاية الحدود وسلطانه ولكني يعاود على هذا
العالم المادى أفليس هذا دليل محسوس على أنه بضمه محدوده وبحسن خطه ممتاز
عن هذه الاشياء المادية المحدودة . لاشك ان مشاهدة هذا الجهد من النفس
لكني ترقى الى معارج السموات العللا تبعث في المشاهد المبل الى احترام النوع
الانسانى الذى يجدر به هو نفسه ان يتفخر بعظمته افتخارا)

كما قضى الله للنوع الانسانى ان يكون اهلا لاعتلاء درجات كل ما يتصور من الفضائل
كذلك حكم عليه بان يكون قابلا للنزول الى أخس دركات الرذائل . وفي درس تاريخ
الانسان اكبر عبرة لمن يريد ان يتفكر

خلق الانسان على تمام الجهل بالكون الذى قذف به فيه بخلاف الحيوان فان
الخالق جل شأنه وهب من الالهام كبر مرشده لنوال ما يكل له حياته ويحفظ
نوعه بقاءه . فتراه لا ينساق الى الافراط ولا التقصير بل لدرجة تودى به ونشأ
مطبوعا على الاهمال التى تمهي له راحة حياته من بناء مسكن واعداد محمل لائق
لوضع . فغاره فيه الى غير ذلك من الامور التى يندعش منها الانسان اذا هنى بدرس
علم الحيوان . اما الانسان فمجرد من كل هذه الخصائص بالرة وعوض عنها
مزية الحسنة فى التصرف بالقوة الفكرية تصرفا غير محجور . وجد الانسان
وهو شاعر على ما به من ضعف وعجز بانه مليل كل الكائنات الارضية وزهرة
هذه العوالم الكونية فلم يشده ضعفه وفاقته عن التطلع للنعطة الرفيعة التى اهدت له
والتي يرى مثالها فى وجدانه يتلأأ أنا نعيمه فى آنا لينشأ له بين الرجا والياس
باعت قوى على اعمال مواهبه واجهادها والجري وراء تلك المنصة العليا التى تهس
بها نفسه احساسا سرى بدون علم بما هيته ولا كيفيةها . اختلف افراد النوع
الانسانى على حسب الامزجة والامكنة والازمنة فى ماهية أمنيصة النفس
البشرية وهم كل منهم على قدر ما خولته الامكنة وامكنته الفرصة بالبحث عن
تلك الرغبة الروحية فظن بانهم فى الملاذ البدنية والتمهوات الهميمة قد ابوا
على اختراع انواع الزينة وهيات الطرب فنشأت من ذلك الصنائع الجيلة على

اختلاف انواها وتباين اصنافها مع ما استلزمته في اثناء البحث عليها من قواعد
الصنائع النافعة والاعمال المفيدة وزعمها بعضهم في هلو الكلمة وبعدها الصيت
فجذب في تدويج البلاد وتذليل العباد فنشأت من ذلك الحروب والغارات مع
ما استلزمته من معارف ومعلومات ومن صعود لبعض الامم وهبوط لبعض
الآخر مما له ارتباط قوى بتدرج الشعوب في مدارج التقدم والحضارة . وحسبها
غيرهم في تريبض النفوس وتهذيب الطباع وحث القوة الفكرية واستثمارها
فنشأت من ذلك علوم الاخلاق والابحاث العلمية والعملية والمسائل الفلسفية مما
كان له اثر عجيب في تنمية المادة العقلية وتوسيع نطاق القوة الفكرية . وعلى
هذا النسق من اختلاف المشارب والوجهات في البحث عن السعادة النفسية
المتناهية تم للانسان من الرقي ما بلغه الآن . وسيستمر هذا الانفعال النفسي وراء
هذه السعادة المرجوة حتى يتم الابداع الذي اراده الله أن يتم على يد هذا
النوع الانساني .

في اثناء هذا التدافع المدهش كان الخالق الحكيم جل شأنه يرسل رجالا هم الانبياء
عليهم الصلاة والسلام فيوضح اليهم الطريقة الملائمة لعصودهم والتي لو اتبعوها
الانسان لوصل الى سعادته من اقرب الطرق اليها . فكان يقبضهم من الناس من
قدراثة أن يكون على أيديهم . ثم نقل النوع الانساني من حالة الى حالة ارقق منها
فيمتدرون هامين بما أخذوه من نبي زمانهم برهة قصيرة ثم يعودون الى تدافعهم
الاول بعد أن يمتدوا فواضل كتهمهم تحريفها يجعلها غير صالحة لقيادتهم وضبط
أهوائهم ولا يزالون كذلك حتى تميتهم نواويس الحياة الى صعود درجة أخرى من سلم
الدينه والترقي فيرسل الله تعالى اليهم رسولا من أنفسهم يكون في مقدمتهم عند
احتلامهم تلك الدرجة الجديدة . وهكذا كان شأن الامم كافة من التجاليد والتدافع حتى
تم غزو العقل الانساني وصار مقتدرا على تمييز الغث من السمين فارسل الله سيد
الوجود وخاتم الانبياء محمد صلى الله عليه وسلم بالشرعية الخالدة والدين الابدى . ولا
يهولك ما ترى من آثار التجاليد الفكرية والتضارب العقلي بين سكان هذه

المكرة ولا تستتجن من ذلك قرب ظهور نبي آخر فان كل ما تراها جاصلاً أمامك من هذه الجلبة والصياح والتجاذب ليس هو الا اعدادا لابناء القرون الحاضرة والمستقبلة الى فهم حقيقة الاسلام وادراك أسراره . نعم (سنرى بهم آياتنا في الافاق وفي أنفسهم حتى يقين لهم أنه الحق أولئك يعرفون أنه على كل شيء شهيد)

تكاليف الحياة

الحياة وما أدراك ما الحياة حرب عوان وأهوال تشيب لها الولدان وتضعف لها الرؤس وذوات التيجان يتساوى فيها المليك والمملوك والسرى والصعلوك والجهال والعلماء والأغبياء والحكياء . بل هي مورد تتزاحم حوله النفوس ولا تفوز بحسوة منه الا بعد أن تصادم العظام وتتشعث الدواهي الدواهم وهي حسوة مغزوجة بالا كدار مشوبة بالاوزار يغص بها حاسيها غصّة تهجز الطب والاطباء وتتعاصى على كل دواء .

حياة الانسان وما أدراك ما حياة الانسان مدة قصيرة الأمد كثيرة الهم والنكد يكون الانسان فيها هدفاً لسهام الحوادث وعرضة لنبال الكوارث لا تغني عنه الجنن الواقية ولا الدروع المضاعفة ولا الحصون الشائخة ولا البروج الشاهقة . سهام ونبال تلازمه من يوم ميلاده ملازمة العرض للجوهر فيشب الانسان وينيب وهي لا تفر عن خزنه ولا تقصر عن طعنه حتى يولد الانسان أن لو كان من بعض الحيوان ولم يكن لهواً مكانته بما تشيب لهولة نواصي الاجيال ولا تستطيع أن تحتمله شواخ الجبال . كلا . (اننا عرضنا الأمانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان)

لست أيتها الانسان مـ كما فتكون بعزل عن دواعي الشهوات ومنغصاتها ولست حيواناً فيضعف فيك الشعور بتأثيرات الحياة وويلاتها بل قضى خالقك جل

بشأنه أن تكون بين هاتين الربتين في منزلة لو حفظت لنفسك فيم أحق خدمتها
لخدمتك الاملاك ورفعتك الى الافلاك ولو قصرت في واجب نفسك ورفضت
لسلطان البشرية فيك لتزلت الى منزلة من الصفة يعاقبها أخس الحيوانات ويألف
مما أنت فيه من السوآت هذا حظك قد خطه باري النسم من القدم وأودع فيك من
الاستعداد والقبالية ما يسهو بك الى المحل الاى يليق بك من الكمال والرفعة
وأسكن فؤادك عقلا يضي عليك حوالك الاحوال وبه تكتن من اغلال الاهوال
لو احسنت انفسارته وأجريت اشارته ولم يخلق ماتراه أمامك من المصاعب
والمصائب لتعذيبك على غير جدوى أولئك يسمع هو يلك من البلوى بل تذكرة
تقيلك من هجرة وتحميلك من كربة وترهك من هلكه (ظهر الفساد في البر والبحر
بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون) . نعم ليس
ماتراه أمام عينيك من الاهوال أو ما يعترض أمانيك من تقلبات الاحوال عقيمات
أمام سعادتك أو موانع دون أمنتك فلا تكن كالطفل العاصي يزعه أبوه عن البطالة
فيظننه قاسيا عليه غير جائ اليه كلا (لله أرفق بعباده من هذا العصفور على
فرخه) حديث شريف

سبق أن بينا في مقالنا السابق أن الانسان مستعد لأن يرقى أوج الملكوت الاهلى
ومستأهل لأن يتسبح هاته الرب العصى مما لا يحده وصف الوصفين أو تفضيلات
الشعراء المداحين فإذا تقرر لديك ذلك فهاهى الوسائل التي يجب أن ترفعك من
معهد هذا الطين الميت الى محمد ذلك النور الحى أتريد أن تنزل اليك ملائكة من
السماء فيقودونك بيدك الى ما عدلك من مقاوم الشرف ومنزل الرفعة ان قلت
نعم فما الفائدة اذن من ايداع الخالق فيك هذه المنح العلوية العظمى مما لو التفت اليها
قليل لا لو قدر التفاتك الى نقش الدينار ورسمه لعلمت أن في فؤادك كنزا لو انفتحت عرك
في تدبر ذخائره لما وصلت الى عشر عشرينها كنز يصغر اليك شأن الذهب البريز
والجوهر العزيز ويبدعك تسراعتك لالتماس الرتبة التي تليق بعظمتك من هذا
الوجود ويريك ان سفاسف الامور ودنايا الاعمال ليس مما يجوز لك أن يعيرها

فكرا أو غيرهما (وعزتي وجه لالي ما وسعتني أرضي ولا سمائي وليكن وسعني
قلب عبدي المؤمن اللين الوداع) حديث قدسي

أيها الانسان انك من نفسك المحبوب ومن أشرف مزاياك أسلوب ليس مثلك
من يترنخ رافات الشجره فيذم معهم الزمان والمكان ويتباكى على ماسيه يكون وما
قد كان ليس مثلك من يستमित لكسره أو يتمل صديقه لأجل ابره أو يبيع رده
في سبيل الخمره ماهذه الغفلة ماهذه السكره بل ماهذا الموت أضعت أيامك في
تخييل المصائب والخشيه من النوائب وصرفت همك في أوهام يستدكفها الحيوان
وعجبها العرفان هل يليق بـن يحصر الكون بكوا كبه والعالم بعجائبه في فكره وهو
جالس مع صاحبه أن يتدفى الى درجه من الاستكانه والمهانه يضيع بها تلك المواهب
العظمى والمخ الكبرى الخزيه يفعلها أو غيبه يتلظ بها حتى اذا تجلت له نتائج
تمامه وابتدأت أن توقظه من سباته ارتعدت فراشه رعبا وارتجت مفاصله رهبا
وأخذ ينادى وامصيتاه وامصيتاه ثم يأخذ يبكى بكاء الشكلى ويزرف الدموع
الحزري مغمضا عينيه عن النظر وبصيرته عن تبين العبر فيضيع بجبهله مزيه
ما يرفعه الى محتده الاعلى ومركزه الالهي (ومن الناس من بعد الله على حرف فان
أصابه خير اطمان به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك
هو الخسران المبين)

ان الذي تسميه مصائب أيها الانسان ليس هو الايد الجبار الاعلى تستلفتك الى
الغايه التي خلقت لأجلها وتبعثك من جدث الجود الذي أوقعت فيه عاديك في النفي
المزري مع ما تطويت عليه من الغرائز الشريره والتجاذبات المنميه نعم ان الذي خلقك
من الطين الاصم وأراد أن يعطوك الى أعلى فمرا كزال كمال سلط عليكم عوامل
ثلاثه تصرف في مصاعبها وتدبر في أسبابها ومسبباتها لرأيت طريق السعاده
التي تشدها وتوت بحصره دونها هو بين يديك وأمام عينيك وما عليك الا أن
تجري على سننها القويم وصراطها المستقيم لتصل الى غرضك العظيم
ماهي تلك العوامل الثلاث المهمه هي الطبيعه ونفس الانسان وبنو نفعه

اما الطبيعة فهي محمد جسم الانسان بما ترتبط سعادته المادية ومنها ينبوع راحته
 الحسية . قذف الانسان من يوم خلق الى هذا العالم المادى قتلناه بنواميسه
 الكثيرة وعوارضه الشديدة حالة كونه كما وصفه العلامة لبنيه هارى الجسم وبدون
 سلاح فوخزنه الشمس بحرارتها والارض برطوبتها والسما بامطارها والهارى
 بسهمها واعاصيرها والوحوش بانبيائها واظفارها فصار الانسان بين هذه العوامل
 هدف السهام لا ينجى بغيره منها ولا وسيلة تبيده عنها فلو كان كغيره من الحيوانات
 محدود القوى الادراكية لما أمكنه ان يعش طريقة عين ولكن الله جل جلاله قد
 قذف به الى هذه الاهوال بعد ان منحهم من المواهب ما يستطيع بها ان يتغلب على
 الطبيعة ويأسرها فلم تغل عزيمته ولم تنضب همته بل قاتلها بسلاح فكره الحديد
 وابتهكر من الصنائع الأولية ما يحمي منها وقتاما ولم يزل يجد ويجهز وفي تحصيل تلك
 الطرق الواقية حتى ارتقى شأنه شيئا فشيئا فصار يتمكن من بناء البيوتات بعد سكنى
 المغارات ويحترق الارض ليستخرج خيراتها بعد ان كان يفتدى بجذور الاشجار
 وأوراقها وهكذا . ولكن الطبيعة لم تغفل عنه طريقة عين بتقدير العزيز العليم كي
 لاتركه همته وتمكن حركته فصاركما اتقن هـ لاعدت الطبيعة هـ عليه فلينتج
 الى تحسينه ولم يزل ذلك التدافع بيننا وبين الطبيعة الى اليوم
 كان من نتائج هذه الحرب العوان ارتقاء الانسان ماديا للدرجة التي نرى بها
 لندن وباريس من عجائب الصناعات وغرائب المكشفات مما لو حدث به الشرقي
 لرمى يده بالجنون لعدم تصوره ما يقول . هذا الارتقاء يستلزم بالطبع ارتقاء
 ادبياعظما لانه لا يتأتى الا بعمل القوة العقلية واجهادها وهذه القوة هي
 كما لا يخفى محتمل الفضائل البشرية هذا فضلا عما تستلزمه سهولة الحياة من
 قلة الجرائم الفظيعة كالقتل والسطو وغير ذلك

فانظر يا يسك الى ما كان يسميه آباؤنا مصائب وجوايح كيف بعث الانسان الى
 الارتقاء وحسن الحال وجذب به رغم أنفه من طور البهيمة الى طور الانسانية
 هل بعد هذا يصح ان ندع تلك المصائب وتبرم منها بعد غلنا بانها السائق

الوحيد للفكرة الانسانية الى البحث عن أسباب السعادة والرفاهية . أما يجب
 علينا بعد هذا أن لا نجعل جزءا من المصائب الطبيعية فشاة كتيها بيننا وبين
 استبطاط الطرق الى تخفيف وطأتها أو استئصالها مرة واحدة . فإذا كان
 في ممكنة الفكرة البشرية أن تخرج آلة تجذب بها الصواحق صافرة وتلقى بها
 أسفل سافلين فكيف لا يكون في ممكنتها أن تتبكر طريقة بسيطة تخفف من
 ويلات دودة القطن التي يقف فلا حنا أمامها صاعرا يضرب صدره ويعزق نفسه
 ان الام الاور يسه رزقت حسن التبصر في جوايح الطبيعة فتراهم يتر بصون
 لاحداثها بالمرصاد فكما ألم بهم حادث هبوا يبحثون عن طريقة لازالتهم وتقليل
 خطارته ولا ينامون عن مشروعاتهم حتى يحققوه هلم انهم بان في الفكرة الانسانية
 من الاساليب ما يضمن حياة مستقبلهم كخضن حياة ماضيتهم . هذا هو سبب من
 أسباب رقيهم المدهش الذي قاموا به بطرون به على الشرق بسيطرة الرقيع على
 الوضع (فالناسن التذكرة معرضون)

أما العامل النفساني على الرقي الانساني فهو من أقوى العوامل وأكثرها تأثيرا
 ولا يمتاز عن سابقه الا في كونه معنويا . يشعر كل انسان في نفسه بان وجدانه مبدان
 فسبح لشهوات تتوزعه وأميل تنازعه وآمال تنقسمه مما لا يستطيع امانتها
 ولا ابطال تأثيرها عليه . مما يبدل من المجهودات في ذلك السبيل . ليست تلك
 الشهوات مما تنصاع لقوانين المحسوسات حتى كان يستطاع وزنها بقسطاس
 الاعتدال ولاها تملك الاميال مما تقبل التحديد حتى كان يرى الانسان بعينه
 النقطة التي هو مسوق اليها قسرا ولا تلك الآمال مما ترضخ لاحكام القنوع حتى كان
 يتسنى له ان يوقفها عند نقطة مخصوصة . بل قضى الحكيم الخمار أن تنطلق هذه
 العوامل المعنوية من كل قيد وأن تتجاوز كل حد وأن تشد عن كل رابطة
 حتى صارت بما أودعت من روح الحركة والتأثير كأنها اتيارات متعا كسه تتصادم في
 فتواد الانسان تصاد ما يمـوله مرآه ويرعبه منظره ولو كان هو نفسه محتدها
 ومستقرها

أنظر الى ذلك الرجل الرث الهيمته الخلق السربال الجالس في ظل تلك الدوحة أتظن أن
سكونه الظاهري دليل على سكونه الباطني أو أن حالته من الفاقة نهنت وجوده
عن تلك المطامع السرية والمعامع الضخمية ؟ كلا - إن حاله ذلك لم يقل فيه من
تلك الانفعالات النفسية مما هي عليه عنداً كبيراً جالس على أسمى أربكه
لأمة متمدنه

وجد هذا الانسان الضعيف على سطح هذه الكرة الارضية وهو كما هو شئ غير محدود
في جسم محدود أو بحر لا نهاية لسواحه في فؤاد لا يزيد عن الكف مقاساً لم يستطع
أن يطمئن الى شئ من الاشياء المحدودة أو يركن الى كائن من الكائنات المشهودة
الارثية يتحقق أن ذلك الشئ ليس بما يصلح أن يكون سفينة له يقطع على ظهرها عباب
ذلك البحر الزاخر الذي يجمع دوى أمواجه داخل فؤاده . نعم بذل الانسان وسعه
من القدم في تحسس مالاتأنس نفسه الابه فأم كل طريق وقام كل تيار وسلالك
كل سهل واقبح كل حزن وزل كل غور وصعد كل نجد وتوقل كل رعن وهو
بين كل هذه الهمم الشديدة يصادف مانعا فبرده أو عتبة فتصدده فيزيد خيرة
بما هي السائق له والسوق اليه فيصلح من خطئه ويقلل من غلظه فيترفع
قليلا عما كان عليه في سابق بحشه فتقابل به الجوايح وتصادمه البوائق فيعلم ان
غرضه أسمى من ذلك وهكذا حصل حتى تم له ان ينتقل من دور الة سفل في البحث
الى دور الاستعلاء فيه فصار الآن كما ما طابته النفس برغبتها ألقى بنظره الى
السماء بعد ان كان في السابق يلقي به الى الارض .

هذا العامل النفسي له فضل عظيم في حفظ الانسان من الرضوخ لمؤثرات الهيمنة
فيه فهم يقع في الوحشية التي لو اتصف بها لكان كائنا يتبرأ منه ويأنف ان
ينسب الى نوعه وهذا العامل نفسه هو الباعث الى تأليف علوم الاخلاق
والبحت في الالهيات والنفسيات المرض على الجد في علوم الحكمة كما كان
ولم يزل له أثر عظيم في تحسين حالة النوع الانساني . أما العامل النوعي فهو

نتيجة العامل السابق ولم نسمه فاملا قائما بذاته الا لما انجبه من الانقلابات
الشديدة في النوع البشرى وفي الفرد الواحد .

قلنا أكثر من مرة ان الانسان ممتاز عن سائر الكائنات بانطلاق آمياله
وشهواته عن القيود ومجازة انفعالاته لكل ما يتصور من الحدود بخلاف
الحيوانات فانها مطبوعة على الانصياع لنواميس ثابته وقواعد فامه لا
تعددها ولن تستطيع ذلك . اذ علمت هذا فقل لي بعيشك ما كان يستحيل اليه
خال الانسان مع انطلاق خصائصه عن القيود لولم يصادف في حياته أمور
تجبره رغم أنفه الى تحديد نقطة الاعتدال فيها وايقاف آمياله عند تخوم
التوسط . أما ترى معاناه كان يتلاشى وجوده أو يبقى ولكن مجذوبا مع تيار
واحد يحسبانه سميوصله الى غاية يقف عندها ويتملى بسعادته فيها فيضونه
الحسبان فيظل مذكوبا الى حيث يلاقى حقيقته على أسوأ حاله .

اذا اعتقد رجل ان السعادة في الغنى وأنواعه غير محدودة في وجدانه ونهاياته غير
مرتبعة في جنانه فإذا يكون حاله في هذا السبيل الهيمت للعواطف البشرية اذا لم
يصادف أمامه مانعا يصده ليقف قليلا فيرجع الى نفسه رجعة يفهم بها انه لو عاش
ألف عام دأب على سلوك سبيل الثروة لما وصل الى غاية عما يؤمله وانه لو صار قارون
زمانه ما لا فلن يكون أسعد أهلها حالا .

نعم ان الذي خلق الانسان وأطلق مداركه من كل قيد خلق بإزائها موانع تصدها
لترعها عن الافراط كما رضع وراءه دوافع تصح به لتردعه عن التفريط . قاما تلك
البواعث الدافعة الى الامام فقد درستها في الفصولين السابقين . وأما الموانع
التي تعترضه لتجبره الى الاعتدال في مطلبه فاهما مقاومة بني نوحه ومزاحمتهم في
كل رغبته . هذه المزاحمة تنقسم الى قسمين عظيمين أولهما مزاحمة افراد الجمعية
التي يعد الرجل فردا منها والثانية مزاحمة الجمعيات بعضها البعض في التسابق الى
ما يقيم كيانها من أمور هذه الحياة . هذان القسمان من التزاحم المعبر عنهما بتنازع
ربما هما السيان الرئيسان اللذان علما الانسان رغم أنفه ثلاثة أمور عظيمة

جدا هي نظام حياة الأمم ومساكها . أولها عدم الغفلة عن الحق لأن الإهمال فيه على حسب قوانين الحياة مسقط له اسقاطا كلياً . ثانيهما معرفة قواعد العدل لأن الإنسان بالجور يجزأ إليه أضغان أمثاله فتسوء حالته ويحرم من سائر حقوقه . ثالثها احترام النوع الإنساني بأكمله . هذه الثلاثة أمور كما هي قوام أعمال الأفراد هي أيضاً نظام الأمم العظيمة المتمتع بنعمة الاستقلال فان الأمة المستقلة اذا أهملت مجاراة جاراتها سبقتها الى مطالبها وحرمتها من مقومات حياتها ولا يعد هذا ظلاماً من بل تعتبر هي الظلمة الانثى بما همالها استعمال خصائصها المودعة فيها ومن يتأمل في حالة الجمعيات البشرية المختلفة ير العجب العجيب من آيات المسابقة . هذان من حيثية الامر الاول . وأما الامر الثاني وهو العدل فان من أقل خصائصه في الجمعية حدوث الاطمئنان المتبادل على الحق والمرض وعدم الرهبة من العدوان عليها بما يجمع الاهواء ولا يخفى ما ينبني على هذا الاطمئنان المتبادل من التماسك بين سائر الأفراد والتضافر فيما بينهم على السعي الى تحقيق غرضهم المشترك وهو سعادة الجمعية . ومن يرد برهاناً محسوساً على حسن نتائج العدل فليتدبر في أحوال الجمعيات الحاضرة والقاهرة ليفنى عن كثير من التطويل . وأما عاطفة احترام سائر أفراد النوع الإنساني فانها ما انبثت في أمة حيه الاوقلت من حدة الاسلحة الموجهة اليها بتأثير تنازع البقاء وكسرت من نصال مجاورها الطامعين فيها وأمانت من هرامهم وشرتهم للرجة تظمن به على نفسها أكثر من اطمئنانها بقوتها وعظمتها .

لترجع الى ما تكابده فنقول ان هذه الثلاث هوامل الرئيسة (الطبيعية ونفس الإنسان وبنو نوحه) مع النوااميس الكثيرة الثانوية التي تستلزمها هي بواعث الرقي الإنساني قدرها الخالق جل شأنه تقديراً لأجل ان ترفع الإنسان رنما عنه من درجة الوحشية الى درجة المدنية أو السعادة الإنسانية وهي هينها موضوع بحث الباحثين وغرض العلماء المحققين من منذ آلاف من السنين الى هذا الحين

﴿ الدين والعلم ﴾

ان المناظرة بين رجال الدين ورجال العلم ليست بقريبة العهد فان التاريخ يدلنا انه من منذ ازمان بعيدة جدا كانت المشاحنات والمشاغب قائمة بين الطرفين في اغلب الامم الا ان العصور المتقدمة كانت تتميز عن عصرنا الحاضر في مساواة تلك المشاكل وحراتها فان كثيرا من فلاسفة الامم حكم عليهم بالاعدام بالسهم أو الحديد أو النيران لمحض كونهم قاءوا فيرون عقول مواطينهم من الاوهام التي تحط بشأن العقل وتطفئ من نوره أما في عصرنا الحاضر فان العلم على ما قاله السيوس برتولو (أحد فظار خارجية فرنسا وأكبر علمائها الكيمائيين) قد نال حريته المطابقة وصار لا يخشى سيطرة الدين عليه . لقد صدق المسيو برتولو فانا نتلوها ولغات القوم العلمية فلا ترى الاطعنا على الاديان وتنديبها يد لنا على ان القوم قد مروا من سماروق السهم من الرمية ولم يفهم ذلك بل أخذوا يندرون بالانغماء العاجل لعدم انطباقها على النواميس المرفقة للانسانية ولا على القواعد العلمية على زعمهم .

ألف السيوس بنجامن كونستان كتابا سماه (الدين وينبوعه واشكاله وترقيه) بحث فيه عن العائل التي أنعمت جسم الجمعيات البشرية من جراء الاعتقادات الباطلة ثم حكم بأن مداواة هذه العائل لا تتأق الابحرية الضمير وحرية الاعتقاد والحرية الشخصية وبالاخص لكل الحريات الضرورية ثم قال (بهذه الطريقة تتفق الأديان عن أدراستها ولا كمالا نخال ان ذلك يتحقق مطلقا لاعتقادنا انها لن تترك شيئا من أسسها . ولكن حيث ان هذه الأسس تناقض العلم وتعارضه فيكون من المقرر الثابت انغماء الديانات وزوالها) . فمن فحجب للغاية من كون مثل هذا العالم الشهير يحكم على سائر الديانات بدون استئنه بالانغماء والزوال حاله كونه لم يدرسها كلها طبعه لانه لو درس الاسلام ولو درس أسسها لكان يتحقق قبل كل شيء انه ليس فيه أسس تناقض العلم كما يتهم به سائرها . ولكننا في هذه المقالة سنقتصر

على اراد أشد المطاعن على الاديان ونقط الضعف فيها نقلا عن أشهر علماء أوروبا
ليقف قارئنا على اتجاه الافكار الأوروبية عليه . ولتتحقق بعد أن نورد عليه
أسس الاسلام انه هو حقيقة أمنية النفوس وحظية الارواح .

قلنا ان المسيوكوفستمان قد أنذر سائر الاديان بالزوال والان نقول انه علل ذلك
تعليلاً فلسفياً فقال (ان كل قاعدة مهما كانت نافعة في الحال فلا بد ان تكون محتوية
على جرثومة تعارض الرقي في الاستقبال . لان تلك القاعدة تأخذ بطول المآل
شكلاً عديم الحراك يأبى على العقل البشرى اتباعه في مكشغاته التي ترقيه كل يوم
وتطهره . اذا حصل ذلك انفصل في الحال الاحساس الديني عن تلك القاعدة
المتهجرة ويطلب سواها من القواعد التي لا تخرجه ولا تخرجه ولا يزال يضطرب
حتى يصادفها)

درس القوم الانسار درسا مدققا واهتموا الى الطريق الذي يجب ان يسلكه لكي يصل
الى سعادته وعلموا انه لن يستطيع أن يلعب الدور المهم الذي اعتد له العناية الالهية الا
باستعمال سائر خصائصه واهبه الممنوحة له وعدم قتل عاطفة من عواطفه ثم نظروا
نظرة الى الماضي فرأوا ان الذي اخر العالم الانساني عن الوصول الى ما هيئ له من مقام
الرفعة هو الانصياع الى اوامر رجال ادعوا انهم قادة الاديان ورؤساؤها فانحوا عليهم
طعنا وتنديا وروموا تعاليمهم بتهمة تأخير الانسان واهباطه ومن ذلك ما قاله فويرباخ
منهك (ان الفضيلة الدينية وعلى الخصوص الفضيلة العليا اي فضيلة الاولياء هي ان
تنبذ الحياة المدنية والسياسية وان تطرح سائر الاعمال والاشياء الدنيوية كأنها هوى
باطل لا أجل أن تستطيع بدون ترويح لنفسك وبقلب منكسر ان تقبل في انتظار
الجنة . وأن تقتل جميع عواطفك وامالك الطبيعية وعمت نفسك وتذلها .)

رأى علماء اوربا والدليل الحسي بين ايديهم أن رقي الانسان منوط برقي العلم وغوة وان
غوة العلم رقية مرتبطة بانطلاق العقل من قيوده وتحرره من أصغاده وعدم سيطرة شيء
من الاشياء على الابحاث العلمية حتى لا يتأتى من تلك السيطرة ما حصل من نتائج
المتباينة بين رجال الاديان ورجال العلوم في الازمنة الماضية . قال المسيوبلوك (ان رقي

القوة الفكرية وتحسن الحكم على الاشياء بتعاقبها العلم وقد تحصلنا على هذه النتيجة
بترقية معلومتنا التي هدمت أركان كثير من ضلالاتنا السابقة من جهة ومن جهة أخرى
باستعمالنا لحسن النظر والتدقيق في الاشياء

لاعتقاد العلماء الاوربيين بان حرية العقل والعلم هي مناط كل السعادات المادية
والمعنوية تراهم لا يستطيعون ان يكتبوا تاريخ الضغوط عليهم مما لا يجزيه الانفعال
والتغليب من الماضي متشفين من الذين يؤمنون ان يعيدوا الكرة . ولترجم قطعة
صغيرة من اقوال لاروس الشهير ايرى القارئ مقدار التهمس الذي يتذكر به علماء
الغرب ضغط الزمان السابق قال (ان قلنا ان الاحسان يقتضي اعتقاد الاشياء
المعقولة . يقولون كلا كلا . ثم يسعون في تذييل هذا العلم قل الانسان الذي يدعي
انفسه حق التمييز بين الخير والشر وبين العدل والظلم . حتى اذا اعموا بين العقل
وغشاها بصيرة البصيرة لدرجة بهم تراه الكرامات كأنها موزعة وقطن الابيض اسود
وتعد الرذيلة فضيلة يعود الدين فيقول اطيعوا . نطيع من . هل نطيع العقل . هل
الواجبات الطبيعية هل الاحساسات العلمية هل النواحيس الحقيقية المفيدة
للانسانية والتي تنتج من تلك القواعد نفسها . كلا ولكن اطع وان اعمى الى الذي
يحكم باسم الله حتى ولو امرك بمثل مليكان أو ابيك أو بعمل مقتلة عامة فانه ليس لك
لا روح ولا ضمير انما انت ميت في الله .)

الى هذا الحدوا اكثر وصلت مناواة علماء اورب بالاديان الموجودة ولكن هل نستنتج من
هذه المناواة انهم تركوا الدين بالمرّة وهو انهم استغنوا بعلمهم عن الاخبار والخضوع
لخالقهم وخالفوا كل شيء . كلا انهم ليقرنوا مع اصحاب الاديان ويزيدون عليهم في
استدلالهم بالابحاث العلمية ان الاحساس الديني هو غريزة النفس البشرية لا تقل في
الوضوح والتأثير عن الاحساس بضرورة الغذاء قال (جيمز) الفيلسوف الالماني في
كتابه تاريخ الاعتقادات (الذين مخلد مثل خدود الاحساس الذي يتبعه ولكن عاوم
الدين هي مثل سائر العاوم الاخرى يجب ان تكون قابلة للرقى على قدر الرقى العقل

وذلك . مثل العلاقة الموجودة دائماً بين الحقوق وعلم التشريع فالحقوق لا تتغير ولكن علم التشريع يجب أن يتغير ويتذبذب على الدوام .

وقال المسبوارنست رينان في كتابه المعنى تازيج الاديان (من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شيء ونجبه وكل شيء نعتده من ملاذ الحياة ونعيمها . ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والعلم والصناعة . ولكن يستحيل أن ينمحي التدين أو يتلاشى بل سيقى ابد الابدية ناطقة على بطلان المذهب المادى الذى يود أن يحصر الفكر الانسانى فى المضايق الدينية للحياة الطينية .)

ولخص الامر ان علماء اورو بالذين يركن اليهم يجمعون على انه من المحال أن تزول من النفس غريزة التدين كما يستحيل أن تزول منها غريزة الحب أو البغض ولكنهم قرروا مع ذلك وكتبهم شاهدة عليهم أن لادين من الاديان الموجودة يصلح لان يكون الدين العام للجمعية البشرية المستقبلية ولا الحاضرة . لماذا . قالوا لعدم انطباق اساساتها على قواعد العلم واما كسنة نصوصها بلدائه العقل وتقيدها الامور تقيدها فى ما عليه المداوك البشرية من الحرية والانطلاق ولذلك قال احد فلاسفة اوربا ان الدين كان يبقى غير قابل للزوال والتلاشى اذا كانت قواعده مطلقة عن الحدود ونواميسه مجردة عن القيود كما هو اسعداد الانسان للكمال المطلق واهليته للرقى الذى لا يحدده وصف الواصف . ويقولون انه لو كان دين من الاديان الحاضرة يستطيع ان يؤلف بين الاحساس الدينى المغروس فى جبللة الانسان وبين مطالب الحياة وواجباتها ويسير بالجمعية البشرية الى حيث هدتنا اليه الابحاث العلمية من السعادة المرجوة لزم الاعتراف بضرورته اعترافاً قطعياً قال لاروس بهدأ أن ندب بنظومات الاديان ما يأتى (ابست هى الديانة التى تحت الرجل على اداء واجباته بل هو الفكر العام وقوة الطباع والاحساسات التى تنشأ فى داخلية العائلات تحت ظل ذلك الفكر العام الذى هو نفسه يزدن ذبا ولطفا كما تقدمت المدنية والمعلومات . فان عرفت الديانة بانها مجموع افكارنا الصالحة لبط جميع افراد البشر الى جمعية واحدة متمتعة

بالفوائد المادية كما هي مقنونة في القوة العقلية فقد حقق لنا إذن ان يقول ان الدين ضروري للنوع الانساني .

هذا ومن الأدلة الحسية على أن العقل البشري مهمات ترقى وتقدم فلا يستطيع أن يعيش بلا دين هو أن طائفة كبيرة من علماء أوربا قامت بتأليف ديانة سمعتها الديانة الطبيعية ولم يدخلوا اليها من القواعد والاصول الا ما دل على حقيقتها البرهان وقام بالدلالة عليه الحس والعيان وسنأت في الكلام على أسس الاسلام على اهم قواعد ذلك الدين الجديدي يرى المسلمون باعينهم أن دينهم لم يترك مجالاً للجائـل ولا مقالاً للقاتل (أفغريدين الله يبعثون وله أسلم من في السموات والارض طوعا وكرها و اليه يرجعون)

﴿ ماهو الاسلام ﴾

أي بليغ بقصدى للكلام على الاسلام ولا يشك من العجز القام والقصور البين عن القيام بتوفية هذا المقام السامى حقه من التبيين . وای حكيم بتعرض لتفصيل بدائع هذا الدين الخفيف ولا يعد نفسه من القاصرين المقصرين (ولو أن ما في الارض من شجرة اقلام والبحر يمدده من بعده سبعة ابحر ما نفدت كلمات الله)

أي مادة غزيرة وفريحة سامية وطامة شاملة يجب أن يتصف بها الانسان لأجل أن يمكنه فهم وتفهم هذه النواميس الازلية الأبدية التي تدور عليها الأدوار وتزورها القرون والأعصار وهي كما كانت نواميس يزيد بها القدم شيئا وبيلبسها الزمان من الجدة جلبابا وتودعها الأجيال للأجيال ولا يدركها الا الذين انار الله بصائرهم بنور العرفان وأطالع في سماء أفكارهم شعوس التبيان (وذلك الأمثال نضر بها للناس وما يعقلها الا العالمون)

انا نقول بتمام الحرية وكال الاستقلال والعلم نصيرنا والعقل ظهيرنا ان الاسلام هو ستار السكامل الأعلى الذي خلق الانسان واهداه لرقى اليه والذي لاجله وضعت فيه غريزة الدأب والبحث عليه . بل الاسلام هو امنية النفس البشرية التي فطرت

لتنسدها وتكسبها كاهظم غاية لما واصلت نقطة الحكامها فهي لا تقتات تطوري في كل الاطوار وتدور مع كل الادوار بجماع تلك الصالة العزيرة المنال والتي في وجودها راحة لسان البلبال ومقنع لسان كل الآمال والاميال

فعم الاسلام هو الغاية الكمال التي مات دون نوالها الحكماء وفي قبل اكتناهاها العلماء الاسلام هو اتمام نوال القوم والناموس الاعظم الذي من الله به على هذا النوع الضعيف ليقم أودحاليه وينعم به سعادة حياتيه ويجعله الركن الذي يعتمد عليه ويهرع في الشدائد اليه . من به على هذا النوع خاتمة لاديان وتاجا على هامة الزمان وفي الحين الذي تم فيه غو عقل الانسان ليكون حجة من الله على عباده تنطق بالحق وتصعد بالعدل وترينا طاريق الهدى بالجهة لكي لا يكون للانسان بعد أن بلغ رشده تعلقة في رفضه ولا قوة في دحضه

الاسلام دين خدمته العلوم الطبيعية على غير علم من ذويها حتى صارت مخصوصة في هذا القرن اوضح من الضياء وأسهل جولا في العقل من الشعاع في الماء فلا قاعدة دلت عليها التجارب ولا نظرية تأسست بشهادة المشاعر يكون لها اثر في ترقية الانسان وتحسين بناء العمران الا وهي صدى صوت آية قرآنية أو حديث من الاحاديث النبوية حتى يتخيل للرائي ان كل جد ونشاط يحصل من علماء الكفرة الارضية في سبيل رفعة شأن الانسانية لا يقصد به الا اقامة الطبع التجريبية على قواعد الديانة الاسلامية (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق اولم يكف بربك انه على كل شئ شهيد)

بناء على ما قدمنا قلن يمكن عدم تيسار الاسلام بأى وسيلة كانت لانه لا فرق بين عدمه وبين عدم المدنية الانسانية والترقيات النفسانية وبين محو النصوص العلمية العلمية وورد الناس الى الحالة الأولية . وهذا أمر ان يقدر عليه مجموع الانس والجن ولو كان بعضهم ابعض ظهيرا (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره)

فلنشرع الآن بعون الله تعالى في اثبات ان كل ما نقرؤه من قواعد المدنية العصرية

ليس بالنسبة الى قواعد الديانة الاسلامية الا كشاف عن شمس أوقطرة من بحر
وأسهل سبيل يوصلنا الى هذا الغرض هو ان نتكلم على اساس المدنية الحالية ثم
نتثبت انها بعض اساس الديانة المحمدية بطريقة جلية واضحة . فنقول

﴿ ما هو الدين ﴾

ان لفظة دين قديمة جدا كقدم مسهاها وشائعة بين كل الطوائف البشرية سواء
حاضرها وباديها وحشيتها وتمدنها ولا يمكنهم لم يدركوا معناها على الوجه الحقيقي
الذي جاءت به الشرائع الالهية والذي ينطبق على رحمة الخالق وهمايته . ومن
يتدبر التاريخ يرى ان الشعوب المختلفة قد تطورت أطوارا كثيرة في فهم معنى هذه
الكلمة على حسب تطور العقل البشري في فهم العقولات

كان الاقدمون لا يعرفون الدين الا انه مجموع احتفالات عوميه تفهي فيها
الحيوانات أو أمري الحروب ارضاء لمعبوداتهم وتسكين الغضب بهم . ثم لما ترقى
المدارك الانسانية وغت فيها الغريزة العقلية بطرق العلوم والفنون أخذ معنى
الدين ينجلي شيئا فشيئا ويقترب رويدا رويدا من المعنى المراد لله والذي جاءت الأديان
تأمر الناس بفهمه كذلك . نحن هنا قبل أن نتكلم على ماهية الدين بالمعنى المراد
للاسلام يجب علينا أولا أن نتكلم على ما يفهمه علماء أوربا من هذه اللفظة بعد ان
أخصوا العلوم فخصا وأوسعوا الكون بحثا عن نواميسه وتغيرا عن قوانينه ليجعل
هذان بعض الأدلة الحسية على نظريتنا ان كل خطوة يخطوها العالم في سبيل فهم
الحقائق هي تقرب ظاهرا الى الاسلام فنقول ان علماء أوربا بعد ان دخلوا في كل
دور يمكن أن يدخله الانسان المعرض لكل أصناف الفتن العلمية (ومن يطالع
تاريخ العلم من أول سقراط للآن يرى العجب) عادوا الآن حيث الهدؤ شامل
وبذر العلوم كامل فاعترفوا هن مينة بأن لهذا الكون خالقا قادرا حكيمًا متصفا
بكل صفات الكمال ومنزه عن أقل ما يشعر بالنقص . وانه جل سلطانه وضع

الكون على نظام مخصوص يستطيع من ينظر اليه بروية أن يستنتج منها تلك
الصفات العليا استنتاجا محسوسا وأن يعلم منها أموراً يفنى الجري عليها مع قلها
وسهولة فهمها عن ألوف القواعد والتعاليم التي كانت تلقى على الناس فيكون
رؤسهم خضوعاً لها ولكن على غير فهم لحكمتها وتسايجها . ثم رأوا بالاستقراء
لنظام الكون ونواميسه أن الخالق جل شأنه تعالى علواً كبيراً عن الاحتياج
لكثر من صنع يده بل هو غنى بذاته عن كل ماعده . ثم قالوا إن غناه - ذالم يمنع
عن الاهتمام بخلقاته اهتماماً يدل على عظيم رحمته وسعة رأفته وأقل نظرة في
الوجود تدل على صدق هذه النظرية دلالة حسيمة . انظر الى أصناف النباتات
والحيوانات من أدناها الى أعلاها ترى آثار هذه الرحمة الكبرى تتجلى على الانسان
تجلياً يبعثه رغم أنفه الى محبة ذلك الخالق العظيم . فانه جل سلطانه لم يترك كائنات
من الكائنات الا وهب له ما يقيم له أودحياته وبقائه وما يدفع عنه البوائق
والجوائح الا ما يستلزمه نظام الكون ويكون في حصوله أثر من رحمة الله ورافة أعلى
بمجموع هذا الوجود . ثم ان الها هذا شأنه لا يحمل الانسان من العبادة الا ما فيه
حكمة بالغة وفائدة عظيمة لذات الشخص وبنى نوعه وسائر أجزائه الطبيعية .
لان مجرد التدبر في جميع أنواع الكائنات يدل دلالة واضحة ان خالقها لم يخلقها وهو
مريد افسادها ولا مشاها بل خلقها وأراد اصلاحها وبقاها وعما يدل على ذلك
ايداعه فيها القابلية للترقي والتدرج لدرجة حدث في سابق علمه . ولما كان
الانسان لا يفتقر في النسبة الى الله عن سائر الكائنات الاخرى بل يزيد عليها في
كونه نهاية الابداع وغاية الاختراع فيكون بالأولى خاضعاً له ناموس الرقي والتدرج
وقابلية أكثر من سواء . هذا هو الواقع فان من يتأمل في مبلغ الرقي الذي حصله
الانسان من أول نشأته الى الآن يتحقق أن الخالق جل جلاله وهبه من الخصائص
ما يستمر به ترقيه وتدرجه الى النقطة لم يصل اليها الفكر البشري الآن . ثم قالوا
وحيث ان أفعال الله مجردة عن العبث والتناقض فيجب أن تكون تلك العبادة
المرغوبة لله تعالى موافقة للنواميس الثابتة السائدة في عموم الكون وملائمة

للامبال والاحساسات الغروسة في جملة النوع الانساني . فاستنادا على هذه
 البدائنه العلية التي لا يصح الامتراف فيها بنى طائفة عظيمة من علماء أوربا ديانتهم
 الطبيعية واليك ما قاله في هذا الموضوع أحد نصرائها وهو الفيلسوف الشهير
 جول سيمون قال . (انا نودى في أثناء هذه الحياة الواجب الذى رسمه الله
 تعالى لنا تحت رعايته وعنايته . وعند ما ينتهى بقاؤه فهو اما أن يثيبنا واما أن
 يعاقبنا) ثم ذكر الأسباب التى تقتضى الاتابة والعقوبة فقال (أما الامر الذى
 يقتضى المثوبة الحسنه فهو طاعة الانسان لقانونه الخاص وعمله للخير . اما قانون
 الانسان الخاص فهو حفظ ذاته وترقية خصائصه المودعة فيه ثم هى محبة وخدمة
 اخوانه . ومحبة وعبادة خالق ذاته . ولكن ماهى الطريقة التى يعبد بها
 الانسان ربه . ان اداء الواجب وعمل الخير هو عين العبادة والحب والعمل
 والاخلاص هى نفس العبادة ونفس الصلاة . والاخلاص للوطن هو عين
 خدمة الله تعالى . هذه هى الديانة الطبيعية وهذه هى العبادة الطبيعية . كل
 أصول مذهبنا هذا واضحة لا رموز فيها . اما أصوله فهى الاعتقاد بوجوده قادر
 على كل شئ ولا يغيره شئ خلق العوالم وحكمها بقوانين وفواميس هامة
 . ووجود حياة أخرى تؤدى لنا كل وعود هذه الحياة وتركافى المظالم بالجزاء
 الاوفى . هذا هو اعتقادنا فاما صلاتنا فهى أن يكون قلبنا علواً بمحبة الله تعالى
 ومحبة الانسان وأن تكون لنا ارادة ثابتة فى اداء الواجب وخدمة ارادة الله تعالى
 بعمل الخير والبر) اه . وهنا استدرك فنقول ان أصحاب هذه الديانة لا يكرهون
 العبادة الجسمية مطلقا كما يؤخذ ذلك من كلام جول سيمون فى غير هذا الموضع الا انهم
 فقط لا يحتفلون بعبادة جمهية لا يكون من نتيجتها فائدة أدبية تذكر فهم يريدون أن
 تكون معتبرة وسائل لحياء القلوب وتطهيرها من ادناسها بالأغراض القائمة بنفسها
 مجردة عن كل غاية . قال كن الفيلسوف الطائر الصيت . (العبادة الخارجية
 لا تكون رديئة الا اذا اعتبرت أغراضا لا وسائل وهى يمكن أن تكون نافعة مفيدة
 اذا لم تعتبر الوسيلة لا يعاقل وتقوية لاحساسات الفاضلة فى النفس البشرية)

أما نحن فنلخص من كل هذه الاقوال أربعة أمور مهمة هي مذهب علماء أوربا في الدين وهي (أولا) الاعتراف بأن الله غني عنا وعن أعمالنا وان ما نعمله من الخير لا نتيجة له الا منفعة الخاصة (ثانيا) ان الله تعالى رحيم بالإنسان ويود صلاحه ولا يكافه بالعبادة الا لفائدة نفسه . (ثالثا) ان العبادة يجب أن تنطبق على النواميس الثابتة للحياة وتلائم الطبيعة البشرية لان تعارضها وتسعى في ملامتها (رابعا) العبادة الجسمية يجب أن تعتبر وسائل لتطهير النفوس وتهذيبها لا اغراضا مطلوبة لذاتها

تقول ان هذه الاربعة أمور التي لم يبلغها العقل البشري الا بعد ان شابت ناصية السكره الارضية وجعلت علماء القرن التاسع عشر يشبهون بها عجبا ويميلون طربا ليست هي الاشعاعا من الديانة الاسلامية وقطرة من بحرها الزاخر ونحن لا جمل زيادة الاقتناع تأتي هناء على النصوص الشريفة التي تنطبق على هذه الامور الاربعة مرتبة على حسبها فنقول (أولا) قال تعالى ومن جاهدنا فما يجاهد نفسه ان الله لغني عن العالمين . (ثانيا) قال الله تعالى يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر وقال تعالى ما يريد الله ليجعل عليكم في الدين من حرج ولا يمكن ان يديله طهركم ولبسهم نعمته عليكم ولعلكم تشكرون (ثالثا) قال الله تعالى لا يكلف الله نفسا الا وسعها . وقال تعالى ولو انا كتبنا عليهم ان اقروا انفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه الا قليل منهم . وقال تعالى يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا (رابعا) قال عليه الصلاة والسلام من لم تنه صلواته عن الفحشاء والمكر لم يزد من الله الا بعدا وقال عليه الصلاة والسلام كم من صائم ليس له من صيامه الا الجوع والعطش

هذه هي عقيدتنا في فهم الدين وقد رأيت انها مطابقة للعقل والعلم تمام الانطباق ومتممة مع النواميس الثابتة كمال الاتفاق . ولما كانت مطاعن علماء أوربا على الاديان لم توجه اليها غالبا الا من هذه الوجهة الرئيسية التي ينبغي عليها اسارتها

الدين فقد حق لنا أن نقمادى بأعلى صوتنا ان الاسلام أعلى وأسمى من أن يناله سهم
من سهام ذلك التنديد المشين وأكبر وأجل من أن يلحقه طعن الطاهنين
هذه الاربعة قواعد يعتبرها علماء الديانة الطبيعية أركاناً يبنى عليها كل قاعدة
قانونية يكون في العمل بها تقدم الانسان الى النقطة الكمالية التي أعدها النوع
لبالوغها ٢٠ ولما كان العلم هو المنوط اجمالاً بخمس تلك القواعد المرقية
للانسانية فهم يعتبرون كل قاعدة يتوصل اليها من هذا القبيل كأنها قاعدة
دينية في الجرى على سنتها رضا الخالق وقيام بطاعته . اما الروايات القديمة
والأساطير التي مضى عليها ألوف من السنين مع ما استلزمها من قواعد الدين فقد
صدفوا عنها وهجروها هجراً كلياً . قال كن (الديانة الحقيقية الوحيدة لا تحتوى
الاعلى قوانين أعنى قواعد قابلة للتطبيق - نشعر من ذاتنا بضرورة المطالبة
وتكون بحجة ردة عن الاساطير والتعاليم الكهنوتية) كأن كن يريد أن يذكّر
المسلمين بقوله تعالى (تلك أمة قد خلت لهما ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما
كانوا يعملون)

﴿ الناموس الأعظم للدين ﴾

ان من يتدبر في تفصيل تاريخ الامم من يوم - كثرتم الى الآن لا يرى فيها الا أهوالاً
تشيب الولدان وترعد فرائص الانسان . يرى حروباً دموية وقتناً اجتماعية
ومصائب هائلة ومناسد أخلاقية . يرى الاطماع والشهوات البهيمية لابساً
لباس النفاق والوحشية نفساً الدماء وتيمم الابناء وتهدم كل بناء . يرى رجالاً
رفعهم الصدف الوقتية الى مقاوم الشرف الوهمية جعلوا من دونهم عبيداً لصوت
دماءهم ويبتزون شراهم لاطفاه بحمة شرهم واشباع بطن غمهم ٢١ اللهم
الابعض مستثنيات من السعادة كانت تشرق في بعض الامم ثم تختفي ليحل محلها
الشقاء والكمد

هكذا ترى تاريخ الانسان كله ملأ بالاحن والحن مفعما بالكدر والحزن مما يكره
اليك بنى نوعك ويجب اليك انهم نفسك . واسكنك لوعاوت قليلا عن مثار
هذه القلاقل والزلازل ونظرت الى النوع البشرى من وجهة اخرى لرأيت
بعينك ان هناك ناموسا ثابتا يبعث الانسان من خلال هذه المضائك الاجتماعية
والارتبا كانت العموميه الى التقدم نحو الامام رغم ما يساوره في جميع جهاته من
هذه النوائب العميه . ثم لو عبرت من مركزك هذا الى أمهى منه لتحققت ان تلك
الارتبا كانت كلها هي نواميس قانونية تابعة لتلك الناموس الذى شاهدة أولا وان
تلك الارتبا كانت والمضائك هي أفاعيلها وآثارها تنفع في العالم لكي يرتفع في بعضه
ارتبا كما يفصل عنه خبث الاخلاق البهيمية ودرن التزقات الوحشية هذا أمر
لا مشاحة فيه خصوصا في عصرنا الحاضر ويمكنك أن تهتدى اليه بقليل من
الاستقراء فانك لو تفحصت في كل نازلة مهمة أمت بالعالم في عصر من عصور التاريخ
لرأيت انهم جلبت معها فائدة عظيمة لو وزنت مع المصيبة التي سبقتها لاحت عليها
رجحانا يقل من تأثرك من تلك المصيبة بل يرضيك عنها رجاها

نحن في هذا الكتاب الوجيز لاستطيع أن ندرس وقائع النواميس الاجتماعية التي
بتأثير أفاعيلها على النوع الانساني خرج من ظلم الجهالة والوحشية الى باحة النور
 والمدنيه . كلا فهذه أمور تعوزنا الكثير من البحث والتدقيق بخبر جنابنا نبتنا
الاولى من جعل كتابنا هذا صغير الحجم شاه لا لطراف موضوعنا واسكن ذلك لا يعنينا
من ان نلم بسر هذا التدافع الاجتماعي المما يسهل علينا مجتثا وينير لنا المسائل
الاجتماعية الكبرى بطريقة ترينا الحقائق مجسمة أمام أعيننا لتكون حجة
التطبيق أكثر اقناعا فنقول . ان أول ضرورة شعر بها الانسان بعد مقومات
حياته الشخصية هي ضرورة الاجتماع على طائفة من بنى نوعه . فكنت تراه من
جهة ذاته على تمام الحرية لا يقيد بشئ من الاشياء ومن جهة أخرى ضعيفا عاجزا
لدرجة تلزمه أن يضحى بعضا من هذه الحرية في سبيل اقامة أود حياته هر بامن فناءه
عاجل لهذا أجمع علماء العمران على ان الانسان مطبوع على الاجتماع رغم أنه

لانه من مقومات حياته التي لا يمكنه أن يستغنى عنها كما يمكنه أن يستغنى عن
المال والمجاء .

بين هذه الحرية المطلقة التي يشربها الانسان في نفسه وبين احتياجه لان ينضم
الى جمعية من بني نوعه قامت كل الفتن التي يحد ثنائها التاريخ وترويه لنا السيرة
كأبني عابها كل ماشاهدته ونشاهده من التفاعل في أجزاء النوع البشري
جرايا وراه الغاية المتناهية وعلى هذا الحوادث التاريخ كاه في الامم جمعها مبنية على تحديد
قواعد الحرية المعتدلة التي تليق بمقام النوع الانساني وعلى تحديد السلطة التي
تستلزمها حالة الاجتماع . ولم يزل النوع الانساني لآن هدفه للتدافع الهائل
بين أجزائه طلبا للاعتدال الى الحد الفاصل بين هاتين القاعدتين الا أن هذين
القرنين الاخيرين يمتازان عن سابقيهما بشدة القرب من ذلك الحد المعتدل بفضل
الدماء الغريزة التي سمح بها محبو الحرية في أوربا في القرن الفارط عالم يسبق له
مثيل في عصر من العصور السابقة . قال علماء العمران وهذه الحرية التي نالها الامم
الأوربية في هذا القرن الاخير هي سبب كل الرقي الذي نرى آثاره الآن على ربوع
أوربا .

ما هي تلك الحرية التي جاهدت أوربا بالنواها جهاد الابطال وبذلت لتحقيقها كل
مرتخص وقال هل هي بعبادة عنابعد السماء من الارض أو بعداجتهاد أوربا من
حلول الشرق . كلا هي بين أيدينا ولا كنا فقلون عنها كغفلة الغنى الابله عما بين
يديه من الكنوز التي لو صادفت مالها كقوة الساد بها على غيره ولا طلق الاسنة
بالنناء على خيريه . نعم هي بين أيدينا ولو شئنا العلمنا بما أوجرنا على سنتها ونحن
آمنون مطمئنون لا نتكاف في سبيل تأييدها بذل المهج ولا اقتحام الرهج بل
هي من محفوظاتنا نحن ظهر قلب ولا نتكاف فقط الافهمها على حقيقةها ببذل قليل
من التدبر . لو فعلنا ذلك حصلنا الغرب في قليل من الزمن فلا يسعه وقت ذلك الا أن
يندهش من سرعة رقينا كما اندهشت دولتنا الرومان والفرس من سرعة انقلاب حالة
العرب من الوحشية الى المدنية العليا في بضع وعشرين سنة

ماهى تلك الحرية التى يقول عنها المسيود . فى (الحرية هى أفضل سعادات الدنيا)
والتي يقول عنها باسبا (الحرية هى أصل كل الرقى الانسانى) والتي يترجم بحسبها
فيكتور هوغو ويقول (يمكن أن يقال ان الحرية هى الهواء الذى يجب أن تنفثه
النفوس الانسانية) . هل هذه الحرية هى الانقراط الكلى من كل قيد والانخلاع
المطلق من كل رابط . كلا . فتلك حرية الحيوانات التى لانفسدهم عليها . بل
الحرية التى يتوق اليها فلاسفة الامم هى الحرية المعتدلة التى تسمح للانسان باستعمال
سائر خصائصه بدون أن يخشى مسيطرا عليه الا اذا تعدى حدوده المحددة له بواسطة
الشريعة العادلة وكان تعديه ذلك مضرا ببعض أعضاء الجمعية التى هو فرد منها
هذه هى الحرية التى يتلها هؤلاء الامم من يوم أن تسفوا هامة هذه الكرة الارضية
وهاهم لم يزلوا لاذن في جهادهم الاول ولو كانت أشكاله تغيرت عما كانت عليه أيام
كانت القتلا والقواضب هى صاحبة القول الفصل والكلمة العليا . ونحن هنا قبل
أن نتكلم عليهم لاجل أن نطبقها على قواعد الديانة الاسلاميه يجب علينا أن نتكلم
قليلا على جهاد النوع الانسانى وراهها من منبذ الخليفة لستطيع أن نقف على
تفاصيل المسألة من أولها الى آخرها ولنستدل على القواعد الاساسيه التى قامت
عليها حرية الامم المتحدنه فنقول

❁ جهاد الانسان لنوال الحرية ❁

الانسان حر بطبعه ولا يحتاج الى مرشد يرشده الى الحرية لانهم من الاحساسات
الشديدة التأثير عليه اللهم الا اذا توصل الى تفكير وجدانه بالخزعبلات المظلمة لنور
البصيرة كما حصل فى كثير من الامم . ولكن لما كانت الحرية المطلقة أى حرية
الحيوانات تبطل عمل كثير من الخصائص المودعة فى الانسان والتي لانتم الا
بالاجتماع وضع الانسان لان يفهى قليا من تلك الحرية فى سنبل عمارسته تلك
الخصائص . من هنا نشأت السلطة مع ما استقرت منه من المناصب التى أخرجت

تلك السلطة عن حدودها في كثير من الاحوال . ذلك انه لما كان من ضمن اميال
الانسان المودعة في جبلته حب التسلط والعلو على سواه ووجدت بعض النفوس
مساغا الى تحقيق امانها من التسلط المطلق ومجازا الى متابعة هواها من التعالى
الا فراطى على الغير وتفرغت لذلك بكل الذرائع الممكنة

ولما كانت وسائل التسلط لا تنجح الا اذا واجهت الانسان من أشد احساساته تسلطا
عليه ووجد محبوب القهر والجبروت ان أنجع تلك الطرق هي التأثير على الانسان من
طريق الدين وكان الجري على هذه الطريقة سببا في تحريف اكثر الاديان واخراجها
عن نصوصها الاصلية طمعاً في امتلاك أئمة القلوب والسيطرة على العقول . فمكثوا
يتربصون لكل حركة يأخذها العقل طلباً للتخلص من اوهامه القاتلة فيبتكرون له
من انواع التخرصات الدينية ما يقف امامه ولو حينئذ من الزمان مندهشاً مذهواً حتى
اذا صده ما يراه امامه واخذ يتحرك بمنة أو بصره أتوا اليه في الحال بما يشبط من تلك
الحركة أو يمنعه من الانقشار . وهكذا دام الحال قروناً كثيرة جداً في خلالها كانت
كامة أولئك المسيطرين هي الكلمة العليا وامرهم هو الامر النافذ حتى طرأ على العالم
من تأثير نوميس الرقي ما يفكهم نوماً تاماً من رتبة ذلك الاستعباد المطلق لرجال الدين
فنشأت سلطتان سلطنة دينية وأخرى سياسية فحصل بينهما من التدافع والتجاذب ما لا
تكفي المجلدات لتبيين احواله حتى توصلت بعض الشعوب المترقية في هذين القرنين الى
التخلص من نير السلطة الدينية كما اقتضت نفسها ايضا من غلو السلطة السياسية
ففرحت تلك الشعوب بما حصلت من الحرية بعدما شابت ناصية الغبراء وسمرت
شبهها بالاماء فأخذ علماءها يؤلفون الاسفار الغضام ترغيباً بتلك النعم الجزيلة وطفقوا
يشنون هارة شعواء على كل الاديان بما لا نستطيع اثباته هنا وتعالوا فانذروا ساثرها
بالزوال ولم يعلموا ان كل ما نالوه بعد التلي والتبليس هو الاقرب الى الاسلام الذي
اشرق نوره على العالم يوم كانت أوروبا في ظلم الجهالة المالككة .

جاء الاسلام في وقت كانت فيه الدنيا بأسرها خاضعة لدولتين عظيمتين هما دولة العرب
ودولة الرومان . أما الأولى فكانت القلاقل الداخلية والخارجية آخذة في زعزعة

بنيانها وتقويض جدرانها واما الثانية فكانت لم تزل على جانب عظيم من عظمها الاولى وكانت لم تبرح تزلزل الامم بسطوتها وتدقج البلاد بقوتها وكان فيها شطر عظيم من مدنيها السابقة أي مدنيها التي يقول عنها الاروس في دائرة معارفه ما يأتي (ماذا كانت نظامات الرومان على وجه الاجمال . كانت عين الوحشية والقسوة مرتبة في صور قوانين امان جهة فضائل رومان مثل الشجاعة والمكر والتبصر والنظام والاخلاص المطلق للجمعية فهي بعينها فضائل قطاع الطرق والاهصوص . اما وطنيتها فكانت مكتسبة لبا من الوحشية فكان لا يرى فيها الا شرها مفرطاً للمال وحقدا على الاجنبي وضياعا لاحساس الشفقة الانسانية . اما العظمة في رومان والفضيلة فيها فكانت عبارة عن اعمال السوط والسيوف في العالم والحكم على امرى الحروب بالتعذيب او بالاسر وعلى الاطفال والشيوخ بجرع ربات النصر)

نحن لم ننقل هذه المقولة في هذه المناسبة الا انرى القارئ مبلغ المدنية في ذلك الوقت عند اعظم امم الارض ليتمتع ان كل ما سيراه من اساسات الاسلام الطاهرة ليس بالامر المستعار من أية امة من الامم الاخرى كما عسى أن يتوهمه بعض القاصرين ولن نكتفي بهذا بل سنثبت ذلك من أقوال اساطين علماء أوروبا

قلنا ان الامم المتمدنة تألت من الحرية في هذا العصر ما بنت عليه كل رقيها العقلي والاخلاقي عما حدا باكثر علمائها أن يدعوا أن تلك الحرية منافية لنصوص الديانات كافة كما أسلفنا ذلك وبنوا على فكرتهم هذه وجوب زوالها كلها في مستقبل قريب وحلول العلم محلها في قيادة الانسان الى سعادته . اما نحن فسنبرهن بالادلة الحسية أن الاسلام فضلاء عن كونه لا يعارض تلك الحرية التي رفعت الغرب من وهدة فانه يحتوى على قسط منها لا تقارن به حريات العالم على انواعها الا كما يبارن الخيال بالحقيقة .

ان حرية العالم المقدن التي نشاهدها الآن على ما بها من عظم وجه لالة لم تتأيد دعائها ولم تثبت وطائدها الا بواسطة ثلاث حريات بسيطة أخرى كانت بالنسبة لها كأعمدة ثلاث بالنسبة لبناء فاخر . أما هذه الثلاث حريات الاولية فهي (أولا) حرية النفس

(ثانيا) حرية العقل . (ثالثا) حرية العلم . ولانتم كل منكم على كل منها بوجه الاجمال مع اثبات انها بعض قواعد الاسلام فنقول

﴿ حرية النفس ﴾

ان اكبر وسيلة تفرع بها مذلولو النوع الانساني للسيطرة والقهر هي حرمانهم النفوس البشرية من حقوقها الطبيعية وتجريد هان أهم خصائصها الفطرية وجعل تلك الحقوق والخصائص تحت تصرفهم الخاص بوجه ونحو الى حيث شاء هواهم ووافق كبريائهم . فكانت كلمة اعتقدوا أنت أسمى كمالا لاروس هي القاعدة المتبعة والناموس السائد على كل فرد من أفراد الأمم . وكانوا اذا آتسوا من احد من الناس بارقة التحرك الى النفسى من أوثاقه الثقيلة أسرعوا بالحكم عليه بالمرور من الجمعية القدسية وجعلوه طعمة للنيران أو اذاقوه من العذاب ما يقشع له جلد الحيوان . انكحوا لانفسهم حق الوصاية على النوع البشرى وكافوا أنفسهم تربية صغاره فتقشوا في غيبتهم من التعاليم والقواعد ما يجعلهم اذا شبوا آلات صماء في أيديهم يستعملونها كيف شاؤوا وفي أى غرض أرادوا . غرسوا في أذهانهم أن السعادة والشقاوة الابديتين معهودتان بارادتهم ومن تبطنتا بعيشتهم (ولو اتبع الحق اهواهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن) فنشأ الناس طبقة للقلب الذى صيغ فيه قادتهم وكانوا كلما تحركت ضمائرهم وعلمت انفسهم ناداهم عما انطبع في سرائرهم من تلك التعاليم مناديقول لهم . كلائه لا أنفس لكم ولا ضمائر . ما عليكم الآن تطيعوا طاعة عمياء . من هنا ماتت الحرية النفسية ومات ما بيني عليهما من حرية المادك المربية لاناوع المملكات فلم يسع الطبيعة البشرية الا أن أقامت الحجة عليها فغلقت النيات ودويت الصدور ونشعبت الهواجس في النفوس واهومت الانشدة بالاضغان والاحن ووقعت الجمعيات في حيص بيص وكان الناس فيها كقطع الخشب في المراحل تغلى على تنور يصعدوا ينزلها غليان الصدور واضطرابات

الامور ونشأت الثورات الدموية بفظائنها التي لا تنطبق على احساس ولا تدخل
تحت قياس حتى كل ما كان ما يعلمه كل انسان لديه قليل من علم العبران
في اثناه تلك الظلم المالكه وقبل تلك القلاقل المزججه كان خالق الانسان موجهها
عنانيته الساميه الى تربية الامة العربية في وسط الشعاب والصخور على مقتضى قواعد
الحكمة العظمى التي لا يأتيناها الباطل من بين يديها ولا من خلفها يجعل منها امة تقيم
الحجة على لسان الجبار الاعلى وتؤدب الطاغين بيد القهار الاقوى حتى اذا ثابت الاعم
الى السكون بعد أن تنال من المدنية ما قدر لها في العلم المصون وثابت الى فهم ما يدعيه
المسلمون من أن دينهم هو الكثر المكنون والبر الذي قامت به السموات والارضون
وجدوا أن كل ما وصلوا اليه بعد بدل المهيج واقتحام الرهج ليس الا صورة من عكسة
من تلك انعالم الالهيه (سرمهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق)
فهم نظروا الآن فيما يقوله الاسلام في حرية النفس لنثبت لقادة الحكمة ونصرا
النوع الانساني أن كل النظريات التي يفخز بها علماء هذا القرن ما هي الا صدى
الصوت الذي رن بين شعاب مكة والمدينة قبل زهاء أربعة عشر قرنا فتقول جاء الاسلام
واضع الاساس المساواة بقوله تعالى (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم
شعوبا وقبائل لتعارفوا) وقوله عليه الصلاة والسلام (ان الله قد اذهب بالاسلام نخوة
الجاهلية وتفاخرهم بأبائهم لان الناس من آدم وادم من ترابوا كرمهم عند الله
اتقاهم)

فانحى بذلك كل فضل يمكن أن يدعى باصالة المحمدا وبوفرة الغنى أو بالانتساب الى
قبيلة الى غير ذلك من دواعي الامتياز وبواعث الانحياز وجعل التمايز بالمازيا
والاعمال لا بالانحيزة والاقوال فقال تعالى (ان اكرمكم عند الله اتقاكم) وقرر أن التقوى
ليست من الامور التي يمكن للانسان أن يهكم عليها بمجرد النظر الى أفعال الرجل في
الطاعات واجتهاده في أصناف العبادات فربما ذهب ذلك كله هباء منثورا لعقيدة
رسخت في فؤاد فاعلمها لا يطاع عليها غير الله تعالى قال عز وجل (لا يسخر قوم من قوم
عسى أن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ولانساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن) وقال النبي عليه

الصلاة والسلام (وان الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينهما وبينه الا ذراع فسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وان الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى لا يكون بينه وبينها الا ذراع فسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها)

فقررا الاسلام أن قبول الاعمال الصالحة هو من خصائص الله تعالى فليس لأحد أن يحكم على تقوى رعا في غيره بالقبول أو الرذيل يجب عليه أن يدع الحكم فيها للخالق جل شأنه حتى لو بلغت تلك التقوى به احبها الى درجة اعلمته عن سائر اصناف الخلق قال عليه الصلاة والسلام (دعوا المحدثين من امتي) اي الذين تحدثهم الملائكة (لا تحكموا لهم بجنة ولا بنار حتى يكون الله هو الذي يقضى بينهم يوم القيامة) وقال عليه الصلاة والسلام (ويل للمأتلين من امتي الذين يقولون هذا للجنة وهذا للنار)

لم يعين الاسلام طائفة من المسلمين لأمر خاص بامتيازات خاصة تعلو بهم امام القانون الالهي عن مرتبة اقل المسايين حيشية وجاها بل فسخ لكل باب الفضل الرباني وقتر رآن ذلك الباب مفتوحا لكافة على السواء يلج منه من أراد الولوج بدون احتياج ولا عذر لم رشد غير كتاب الله وسنة رسوله . ولم يكنف بذلك بل حذر كافة متبعيه من الوقوع في أشراك من يدهون الاشقاء والاسعاد أو يتكلمون لانفسهم حقا ليس لسائر الافراد . قال عليه الصلاة والسلام (من قال انا عالم فهو جاهل) وقال عليه الصلاة والسلام (اخوف ما اخاف على امتي رجل يتأول القرآن يضعه في غير مواضعه ويرجل يدعي أنه أحق بهذا الأمر من غيره)

أكد الاسلام لمبديه أنه لن يغني عن المرء يوم الحساب غير عمله وان نجيبه من غائلة العذاب غير ما كتبنا نفسه فلا يجديه الانتساب الى عظيم أو الاهتزاز الى أب نجيم قال الله تعالى (وأن ابس للانسان الا ما سمع وان سمع به سوف يرى) وقال جل شأنه (فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) وقال سيد الوجود صلى الله عليه وسلم (يا عباس ويا صفية عني النبي ويا فاطمة بنت محمد اني لست أغني عنكم من الله شيئا ان لي على ولكم عملكم) لهذا وردت الاوامر الالهية موجهة الى سائر الافراد على السواء ومكلفة اصغر

عضو من اعضاء الجمعية الانسانية بما كانت اكبر كبير فيها . قال عليه الصلاة والسلام (كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته) . هذه القواعد رفعت نفوس المسلمين عن ذلة الاسر لنفس بشرية أخرى وممت بها من التقيد بإشارة غيرها لعلها بأنها هي التي ستدان وخذها عما جنت والمسؤولة عما كسبت وانه لن تقفى عنها نفس مثلها .
مهملات وممت .

عقل هذه الاساسات تتأسس روابط المواخاة وتتأكد عرى المساواة ولا يكون السواد الاعظم من الناس مقودين الى طائفة قليلة منهم يسيرونهم كيف يشاؤون ويوجهونهم الى حيث يريدون . نعم عقل هذه القواعد تسود المساواة أتدري ما نتائج المساواة . المساواة هي مبدأ أولى لمعرفة الحقوق والواجبات واعظم . تؤيد العدالة والحرية بين سائر الافراد . المساواة هي الفارق الاكبر بين العدالة الحقة وبين العدالة الوهمية التي تخضع اعظام الأمم وتقصم حياتها قال نابليون (المساواة هي ينبوع كل عدالة سواء كانت بين الشعوب أو بين الافراد) وقال الفيلسوف كوندرسية (المساواة الطبيعية لبني الانسان وهي القاعدة الاولى لمعرفةهم بحقوقهم هي اساس كل الاخلاق الحميدة .

ونحن لانود ان نختم مقالنا هذا حتى نثبت ان المساواة التي تتمتع بها الشعوب المتقدمة الآن ليست بقديمة العهد بل هي نبت الثورات الدموية التي حصلت في أواخر القرن الماضي . قال الفيلسوف فرنك (ان المساواة المدنية التي تأسست منذ نصف قرن عند بعض أمم أوروبا آخذة في الانتشار عند الأمم الأخرى تدريجاً) ونحن أياها نقول اننا ان نتأقوله تعالى (الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله)

حرية العقل

ان اكبر خصائص الانسان شأنها واعظمها أثراً هي قوته العقلية . قلنا ان

الانسان لم يخلق كما خلق الحيوان مطبوعا على عمل ما يقسم اود حياته بل خلق مجردا عن كل علم عايشة لزمه امر بقائه ولكن منح في مقابل تلك الجهالة بالقوة العقلية التي تكبر وتفوق زيادة المعلومات فتغني الانسان عن كل سوق طبيعي وترفعه تدرجيا من الوحشية المظلمة الى المدنية النيرة . ولكن منيت هذه الخصيصة الكبرى مثل سائر الخصائص العظيمة الاخرى الحكمة يعلمها الله تعالى عن بساططها ويعتقها حينئذ من تأدية وظيفتها على حسب قانونها المرسوم لها من القدم

لم يترك بصر مدلول النوع الانساني اواهب الانسان أكثر من تربصهم بهذه الموهبة الكبرى لعلمهم انها السلاح الحاد الذي لو جرد من غمده لم تقف أمامه جيوش الاوهام ولا ظلمات الاحلام فشددوا التذكير عليها تشديدا حرم الانسانية من أعظم خصائصها حتى صرحوا بان استعماله في فهم ما يقولون ينفى الى الابد . فوقع الناس في ظلمة من الجهالة أفضت بهم الى حالة من الوحشية يحدثننا التاريخ بها وهو خجل من نفسه ناظم على أمسه . كان هذا حال الأمم في الحين الذي كانت فيه أصول المدنية الحقنة وحرية العقل عليها الحكيم العليم على خاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم . فبينما كان المسيطرون على الأمم يصيحون في وجوه رعاياهم قائلين : اطفؤا نور العقل اطمسوا عين البصيرة فان الدين ينافي العقل . كان رسول الحق يقول لمتبعيه وأصحابه (الدين هو العقل ولادين لمن لا عقل له) . وبينما كان أولئك القادة الغالون يقولون لمقهورهم . تواصوا أيها الناس بترك العقل جانبا فانه يغضب ربكم عليكم ويحبب سخطه اليكم . كان صاحب المدنية الحقنة صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه (يا أيها الناس اعقلواهن ربكم وتواصوا بالعقل تعرفوا ما أمرتم به وما نهيتم عنه واعلموا انه لا يجدكم عند ربكم) الى آخر الحديث

بهذه القواعد الالهية نال العقل حريته وتخلص من أوثاق كل يسف فيها ويتعثر في أصفادها وصار هو المرشد الحقيقي للانسان وهي الوظيفة التي خلقه

لاجلها الملك الديان كما صار هو المميز لا كبر لافراد النوع الانساني في الافضليه بعد
 أن كان المميز فيها هي العبادة الظاهرية والتقوى العنصرية قال عليه الصلاة
 والسلام (لا يجبنكم اسلام رجل حتى تنظروا ماذا عقده عقله) ماذا تفيد
 الانسان عبادته الظاهرية وأفعاله العنصرية . بينما يكون هو بضعف عقله عرضة
 لكل أنواع الافراط والتفريط يضع الأمور في غير مواضعها ويرن الاشياء بغير
 ميزانها . فان كاف بإدائه وظيفة أساء استعمالها وأخل أهلها لظنه الظلم
 عدلا والعدل ظلما . السناترى كثيرا عن يدعون الصلاح والتقوى صاروا
 جواجج أعظم وبوائق وطئم بمحض ضعف عقولهم . أثني قوم على رجل عند النبي
 صلى الله عليه وسلم حتى بالغوا فقال كيف عقل الرجل فقالوا اخبرك عن اجتهاده في
 العبادة وأصناف الخير وتساءلنا من عقله فقال (ان الاحق يصيب بجهله أكثر من لجور
 الفاجر وانما يرتفع العباد غدا في الدرجات الزاني من ربهم على قدر عقولهم)

هذا هو مقدار تشريف الديانة الاسلاميه للقوة العقلية . ولكن أتدرى ماذا كانت
 نتيجة تحرير هذه القوة الجليلة عند الشعوب المتقدمة بعد ما نالوها بيسع الانفس
 رخيصة في سبيلها . كانت نتيجة تمتعهم بكل ما تراء من عظمة مدنيته وشدة
 صواتهم وقوة شوكتهم . كانت نتيجة اهتدائهم الى طارق السعادة الدنيوية ومنهاج
 الرفاهة المادية . ما تراء ونسمع به عنهم قال لاروس (اذا بحثنا بدون تغرض ولا وهم
 عن سبب الرقي الذي حصل في العالم المادى والفكرى والاخلاق من منذ طفولية
 الجمعيات البشرية الى أيامنا هذه فلا تراء الاتخاص العقل من الضغط عليه) ونحن
 لا نود أن نفعل باب هذا البحث حتى نشبت للتمارى ان تحرير هذه القوة العقلية ليس
 ببعيد العهد عنا وانه لم يحصل الا بعد جهدهم وجلاد شديد قال لاروس (من
 منذ زمن الاصلاح لغاية الثورة الفرنسية استمرت المجالات بحظوظ مختلفة بين
 محررى العقل وبين الضاغطين عليه من القدم . ولجل الاعراض الكلى عن
 أساطير الماضي ورسوم خطة جديدة للمستقبل أخذت الثورة الفرنسية في ترميم

ما تهمهم من أركان الجمعية وصارت تعليم النساء الجديدة من أهم اشتغالاتها (أمانحن
فنفعل (الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله)

✽ تحرير العلم ✽

نسبة العلم الى القوة العقلية هو كنسبة الغذاء الى الهيئة الجسمية فكما ان الجسم
ينمو ويزيد بتمثيله أنواع المواد الارضية كذلك القوة العقلية تكبر وترتقى بتمثيل
النظريات العلمية والمعلومات الخارجية . لهذه العلة أخذ مذلاو النوع الانسانى
في التشنير على العلم والتعديده وبمجميحه وحكموا انه الرجس الذى لا يصح أن يحام
حوله أو يقصد حوضه . قال لاروس فى دائرة معارفه (أما هم فيعتبرون ان
العلم هو الشجرة الملعونة التى تقتل بانمارها بنى آدم) نعم انهم تصدوا العلم تصديا منع
الناس عن ذكر اسمه والعروج على ربه وأخذوا يحرفون فلسفة الاقدمين لتنطبق
على أوهامهم وتتوافق مع أحلامهم حتى لم يبق منها الا هيكل كلام مشوه يافرق
العقل من رؤيته ويأنف من روايته

زعموا ان لديهم العلم الذى لا جهل معه والكنز الذى لا يفقر من جمعه فحكوا ان
كل ما أتى من الخارج منه يكون خارجا عن نطاق التحقيق ولا يقول به الا زندق
فيسرعون بالحكم عليه بأقصى ما يتصوره العقل من العقوبة الجسمية مما يروع
الجسور ويزع الصبور فأما تواب هذه الطريقة عددا عظيماء من الحكماء بهتمة انهم
يسعون فى زيادة واداء العلم ومن يطالع تاريخ العلم ير العبر .

بهذه الوسائل الجبروتية سكنت عاطفة العلم ولم تفعل الا ان أقامت الحجة بلسان
النواميس الجبويه وكانت تلك الحجة الناطقة هى سيادة الجهالة والاضاليل
ورواج أسواق الأوهام والباطيل حتى تغلبت الاميال الالهية عليه على العواطف
الانسانية وعدا الاقوياء يهل الضعفاء فسلبوا هم كل من ايا الحياة وحقوق الطبيعة
ودام الهرج والمرج مساندين على أحوال الانسانية حتى بلغ السيل الربى ولم

يقيم في القوس منزح لجاء دور الثورات الداخية والقاتلات الدموية طلبا لتحرير العلم من ربقته الجهنمية وكان ما كان عما يعلمه من ألم بتاريخ ذلك الزمان

هكذا كان حال الامم قاطبة ينفصا كانت الحقائق الالهية تنزل من السموات العلى على سيد الملا صلى الله عليه وسلم وعلى عليه أصول المدينه الحقيقيه والعلم المطلق من قيود العبوديه . جاءت الديانة الاسلاميه فاكده تصفاد العلم حالة اغلال المعارف مقررده أنه من الظلم المشين والاعتساف الموهين تقييد العلم بقيد أو تحديده بحد فقال عليه الصلاة والسلام (من قال ان للعلم غاية فقد بنى حقه ووضعه في غير منزلته التي وضعه الله بها) حيث يقول (وما أوتيتم من العلم الا قليلا)

صرح الاسلام عن اسان الحكيم العليم في قرآنه الكريم بان فهم حكمة الخالق في كلامه المنزل على صفوة أنبيائه لا يتأتى الا بانارة الفكر بانوار العلوم وتقويم النظر ببدائه المعقولات فقال تعالى (وتلك الامثال نضرب بها القناس وما يعقلها الا العالمون) ولم يكتف بهذا بل انذر المتكاسلين عن طلب العلم بسوءه المقلب وبالطبع على قلوبهم برين يؤديهم الى سوء العذاب فقال تعالى (ولئن أتيتم بأية ليقولن الذين كفروا ان أنتم الامبطلون كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون) . بعـل هذه الآيات اليبينات فتح الاسلام للعلم قلوب الذين لا يعلمون (. بعـل وأراهم ان طابوا والسي في اكنسابها هم من أعظم ما يعبد به الخلق جل شأنه فقال عليه الصلاة والسلام (أفضل العبادة طلب العلم) وقال عليه الصلاة والسلام (نظر الـ جل في العلم ساعة خير له من عبادة ستين سنة)

لم يحصر الاسلام العلم في بلد من البلدان ولا هند طائفة من بني الانسان بل أمرنا باسطياد دشواره حيث كانت وأنى وجدت فقال عليه الصلاة والسلام (اطلب العلم ولو بالعين) وقال عليه الصلاة والسلام (الحكمة ضالة المؤمن يأخذها في وجدها) فليس للعلم أن يرفض حكمة ما يحجة كونها صدرت عن هو مناف له اعتقاد أو مفاير له وجدانا بل يكفيه باعثا لاخذها كونها حكمة وكونها ما يرفع شأن

الانسان وتزيل من جهالته قال عليه الصلاة والسلام (خذ الحكمة ولا يضرك من أي وعاء خرجت) .

أتل أي القرآن الحكيم بتدبر ورويه ترآيات صوادع تزع الانسان عن الغفلة عن العلم وتردعه عن الاغصاء عن فواظ الحكيم . ترى الجبار الاعلى ينادى عباده بلسان الرحمة قائلاً لهم (انظروا ماذا في السموات والارض) وبيكت المقصرين في النظر ليعتبر أهل الفكر بقوله (وكأين من آية في السموات والارض يعرون عنها وهم عنها معرضون) وينذر الذين يعمون أعينهم عن تدبر بدائع الاكوان الباهتة لزايا العرفان بقوله تعالى (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً) قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) هذا هو شأن حرية العلم في الاسلام فهل وصل الاقوال والآخرون الى اعلا شأنه وكبار مقامه الى أكثر مما رأيت في هذه الآيات التي تبعث الجاد فضلاً عن الانسان وهل هذه الحرية العلمية بعيدة العهد عن أبناء هذا العصر . كلا . قال المسيو برتولو (أحد نظارة خارجية - فرنسا السابقين وأكبر علماء الكيمياء) ان العلم يتوصل الى نوال حرية الامن منذ ما تسمى عام . الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

الواجبات الشخصية والعائلية والاجتماعية

قد اتفقت الكلام بوجه الایجاز على الثلاثة أنواع من الحرية التي انبث عنها كل الرقي الذي حصل في العالم المتدور وأقننا الأدلة الحسية على ان كل تلك القواعد الاساسية الممدنة ليست الا شعاعاً من أنوار الديانة الاسلامية ولكن هناك قواعد ثانوية أخرى هي نتائج تلك القواعد الرئيسية يجب علينا أن نتكلم عنها بوجه الایجاز حتى نرى لكل من عنده مسكة من العقل تفسير قوله تعالى (ما فرطنا في الكتاب من شيء) فنقول والله المستعان

الواجبات الشخصية

كل انسان يشعر بأنه مكون من جوهرين متميزين عن بعضهما البعض الجسم والروح . وانهما متحدان مع بعضهما على تغاير طبيعتهما الاتحادا غير باطريقة بها يتأثر أحدهما اذا تأثر الآخر ولو كان فوفا للتأثرين والمؤثرين متباينين جدا . وبناء على هذه النظرية اهتدى النوع الانساني الى أن مناط السعادة المتناهية هي حفظ هذين الجوهرين من أن يعتريهما ما يخل بوظائفهما فصار الاهتمام بكلهما ضرورة لازمة قال لوك (السعادة التي يمكن للانسان أن يتمتع بها في هذه الدنيا تستلزم أمرين اثنين علة لهما : جسميا سليما . هاتان النعمتان هما مستقر كل النعم الاخرى ويمكن أن يقال ان من توفرتا عنده لم يبق في نفسه حاجة لغيرهما . ومن حرم من احداهما فلا يتصور أن يكون أسعد ممن عكسهما معا . وهذا كان متمما بجزايا أخرى لانهما السبب الاولي للسعادة والشقاء فالذي لا يكون مالا كالعقل سليم لا يمتدى عمره لطريق السعادة البين والذي لا يكون جسمه صحيحا لا يستطيع أن يخطو في ذلك الطريق خطوات مهمة) . اذا تقررت هذات قول ان الانسان متنازع بين نوعين من المطالب وهما مطالب روحية تستلزمها سعادته النفسية ومطالب مادية تستوجبها سعادته الجسمية . أما المطالب النفسية فهي مجموع قواعدها لا يقصد بها الا الحصول على صحة النفس البشرية وجعلها صالحة لتأدية وظائفها التي خلقت لها كما أن المطالب الجسمية هي مجموع قواعدها لا يراد بها الا صحة الجسم وان وعكسهما من تأدية وظيفته المطلوبة منه في الحياة الدنيا نقول ان ادراك ان السعادة الانسانية المتناهية هي اصلاح حالة النفس والجسم معا وحفظ النسبة بين مطالبهما اصارت الآن من البداية التي لا يعتري فيها عند علماء العالم أجمع وقد سبقهم الاسلام الى تقريرها أيام كان الناس يجهلون عن السعادة في سكنى الجبال وبالزهادة الكمية أو بالافراط في الملاذ البدنية واطراح كل مزينة فكريه . ولنتكلم على ذلك ببعض تفصيل فنقول

﴿ مطالب النفس ﴾

ان من يتدبر بعين البصيرة في أحوال الخلق يرى العجب العجيب في تباين فطرهم
وتخالف استعدادهم فيرى هذام معتدلا وذلك مفراطا وذلك مفراطا وذلك مفراطا وذلك مفراطا
درجات لا يخصصها الا خالقها وكلهم متباينون في الاعمال والاعتقادات متخالفون
في المسكنات حتى لا يمكن التوفيق بين قواديرهم كما لا يمكن الجمع بين ضددين . كل
ذلك مع وحدتهم في النوعية واشترائهم في الانسانية . لما اذا تراءى هذا التخالف
الشديد بين أفراد النوع الانساني أليس هذا دليل محسوس على ان هناك أمراضا
وأعراضا قد تعترى النفوس البشرية فتشوه من صورها المعنوية كالأمراض
والاعراض التي تنتاب الاجسام فتشوه من صورها المادية . ثم اذا رأيت ان لها
أقلام عن لهوه وغويا ارتدع عن غيبه بتأثير موعظة أو ربهه أليس في هذا دليل
واضح على ان أمراض النفوس قد تزييلها اذا صادفت علاجها الحقيقي . نعم ان
النفس تكون في مبدأ أمرها طفلة مستعدة للانصباب في كل قالب فان منحت مرييا
حكيميا في أول نشأتها شئت على حسب تعاليمه نفسا حكيمة زكية وان منبت
عرب مهمل أو تركت لرحمة المؤثرات الرديئة نشأت نفسا شريرة توردها صاحبها الموارد
الشريرة وتوقعه المواقف المهيمنة . وعلى هذا فيكون حال النفس من حيثية
قبولها للامراض والمعالجة مثل حال الجسم سواء بسواء ولو كانت الامراض والمعالجة
بالنسبة للنفس المعنوية بمبادئها مثالها بالنسبة للجسم المادي .

الآن سهول علينا التكلم على كيفية تربية النفوس وحفظها من الامراض وطريقة
جعلها سالحة لتأدية وظائفها . فما هو السبيل الى ذلك . لا سبيل اليه الا
باربعة أمور . (أولا) تطهيرها من أدناس الأوهام . (ثانيا) تهذيبها
بالمعلومات الصحيحة . (ثالثا) تعويدتها على مكارم السجايا . (رابعا) تصحيح
اعتقاداتها . ولنفرد لكل من هذه الامور الأربعة فصلا مخصوصا فقول .

تطهير النفس من الاوهام

فلما في السابق ان المشابهة تامة بين قواعد حفظ صحة النفس وبين قواعد حفظ صحة
الجثمان . والآن نقول ان اول امر يجب ان يعتنى به الانسان لحفظ صحته الجسمية هي
تطهير دماغه من اوضار الادميين التي لا تقتاتعتر به في اثناء تأدية وظائفه الحيوية وانه
لواهل ذلك التطهير لا فضي به الامر الى طر و المرض على جسمه وانما كذا تدرجها اقواء
حتى ينتهي امره بالموث . اذا تقرر هذا نقول ان الاوهام الفاضدة والباطيل الكاذبة
هي بالنسبة الى النفس مثل الاقدار بالنسبة الى الجسم فيجب الاهتمام بازالتها بالوسائل
الفعالة قبل ان تتراكم على النفس فمريضها وتجهلها غير صالحة لتأدية وظيفتها . فقد
شوهه ان خرافة واحدة قد تلم بالنفس فتمنعها من التمتع بجزايا كثيرة اخرى . وحرمانها
من هذه المزايا يؤدي الى حرمانها من لوازمها فتقع في امراض يعبر عنها بجملة الجبن
والحقود والبغض وهي الامراض التي يضحى فلاسفة الاخلاق كل اوقاتهم لم يلاحظوا في
ازالتها حتى انك لتراهم يحذرون السكافة من الوقوع في اشراك الخرافات كما يحذرونهم
من الابتعاد عن انياب الاراقم ومخالب الضراغم مبرهنين لهم ان كل الفساد الذي
طرأ على العالم في القرون الخالية كان بسبب اخنائهم رؤسهم اكل مائة قال واتباعهم
كل ما يرسم امامهم بدون برهان ولا دليل .

سبقهم الاسلام الى تقرير هذه القواعد فحذر متبعيه من الوقوع في ارهاق الاضاليل
وأراهم أن أكثر ما يدهو الناس اليه يترى بالعقل ويعمد عن سبيل الحق فقال تعالى
(وان تطع اكثر من في الارض يضالوك عن سبيل الله ان يتبعون الا الظن وان هم الا
يخبرون) وقرر ان الانسان سيقف غدا بين يدي الله فيسأل عما حل نفسه اعتقاده
من الباطيل التي لم يقوها الدليل ولم يعجزها البرهان فقال تعالى (ولا تنفق مالهيس
للتبذير) ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولا) ثم حكى لنا حال
الضالين وأرانا ان ضلالهم هذا نتيجة اتباعهم للظنون والاهوام وحكم عليهم بما هم أهله

من سوء المتقلب فقال تعالى (وما يجمع أكثرهم إلا ظن أن الظن لا يغني من الحق شيئا
إن الله عليم بما يفعلون)

﴿ تهذيب النفس بالعلم ﴾

قلنا فيما سبق أنه يجب تطهير النفس من الاوهام كما يجب تطهير الجسم من الاقدار
والآن نقول ان التطهير المادى كما يحتاج الى مطهر خال من الجرائم المرضيه وآت من
من المنابع العصبه كذلك يحتاج النفس الى مطهر يطهرها من اوهامها ويخلصها
من اقدار وساوسها وهذا المطهر الخالى من المحاريب هو العلم الثابت بالتجربة
المستدل عليه بالمحسوسات وهذا امر واضح لا يعترى فيه العقلاء وأول من سنه في
العالم المتدين هو ديكارت الفيلسوف الذى كان عائشا في القرن الثامن عشر ومن ذلك
الحين جرى العمل بذهبه في تخصيص المسائل العلمية الى الآن

سبق الاسلام كافة البشر الى تقرير القواعد الحقة لضرورة تطهير النفس وتهذيبها
بالعلم والحكمة كما كان السابق الى الحكم بلزومه للجسنيين الذكور والاناث معا فقال
عليه الصلاة والسلام (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) وقال عليه الصلاة
والسلام (أطلب العلم من المهد الى اللحد)

هذا ولم يترك الاسلام بابا تنساب منه الا باطيل الى العلم الاسده ولم يسم الشئ علما الا
اذا قواه الدليل وقامت عليه الحجج الناطقة فقال تعالى (ان عندكم من سلطان
بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون)

صرح القرآن الكريم بان كثير من الخلق تحسن لهم احوالهم وتلبس الحقائق
لحاجة في أنفسهم وحذر من السقوط في مخائلكهم ووسوهم بانهم المعتدون الذين يجب
أن يلفظوا لفظ النواة ويعاموا لوجاههم أهلهم من الاقصاء : فقال تعالى (وان
كثير من الناس ليسوا بالعلماء فهم يغترون علم ان ربك هو أعلم بالمعتدين) وقال تعالى
(ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) ثم حكى لنا حال الذين

يتابعون أهواءهم ويتبعون أفكارهم فانذرهم بسوء المصير وشرا العقاب وقتر
 بأن لن يغني عنهم قوتهم انهم مقلدون لسواهم فقال تعالى (واذبحوا الذر اتبعوا
 من الذين اتبعوا وراوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا
 كرة فنتبرأ منهم كاتبرؤا منا كذلك يرهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين
 من النار)

يصح الاسلام في الناس ضيقة توقظ الراقدة وتبعث الصاحي مبرهنات لهم أن ضرورة
 العلم ليست قاصرة على الحياة الأخرى فقط ولكنها تسري على أحوال الحياة الدنيا
 أيضا فإذ لا لهم أن صلاح الشؤون الدنيوية وقوام الأعمال الحيوية لا تنأى الابه
 قال عليه الصلاة والسلام (من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ومن
 أرادهما معا فعليه بالعلم)

يرى الاسلام المقصرين من طلب العلم بأشياء يرمى به مقصرا في واجبه نائما عن مطلبه
 قال عليه الصلاة والسلام (الدين مملوءة ملعون مملوءة بالعلماء أئمة العلماء) وقال عليه
 الصلاة والسلام (انه لا خير في العيش الا لعالم ناطق أو لسامع واع)

ينذرنا الاسلام بأنه سيأتي زمان يروج فيه سوق الاحساد ويرى الاسلام بما ليس
 فيه وينشأ فيه من العلماء المنافقين من يدسون الأباطيل الى الدين لهدموا صروح
 الاسلام ويقوضوا من أركانه بأنواع الخيل الجدلية التي تدق على غير الواقفين على
 حقيقة الاسلام فقال صلى الله عليه وسلم (ستكون بعدى فتن يصبح الرجل مؤمنا
 ويمسي كافرا الامن أحياء الله بالعلم)

الاسلام يصرح لنا أن الجاهل والاسلام ضدان لا يتفقان وان التدرج في فهم
 القرآن مرتبط بزيادة العرفان وان الراضي بالجهالة يكون راضيا باستمرار جهالة
 بكلام ربه المقصود منه تربيته وتطهير نفسه وفي هذامن الخسارة ما لا يدره
 الحاسبون قال الله تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون)
 وقال عليه الصلاة والسلام (وهل ينفع القرآن الا بالعلم)

هذا هو مقدار تشريف الاسلام لمقام العلم والحث عليه وقد رأيت انه أشد تأثرا

هلى النفس وأ كثر تحريضا لها من كل مانعة من قادة المدنية ونضراء التنور (ومن أحسن من الله حديثا)

تأديب النفس بكارم الخصال

يعلم كل انسان ان للنفس أميالا تشهر بها وتنفعل بها ولا تستطيع الانفكاك عنها كايوجد للجسم احتياجات يجب امتناعه بها لحفظ موازنته وعدم الاضرار بكيانه . فكما ان الجسم يشعر بالجوع والعطش والبرد والحرق وغير ذلك من المؤثرات الداخلية والخارجية مما يجب الاهتمام باعطائه حاجته منه أو وقايتها من تأثيره كذلك تشعر النفس بمحاجة الى أشياء وهي وان لم تكن جوعا ولا ظمأ ولا بردا ولا حرا الا أنه لا فرق بينها وبين الجسم في الاحتياج الى أخذ ما يقوم بحياتها منها .

نعم للنفس أميالا ومطالب وهي وان كانت لا تخفى في صورها ولا تهمر في أشكائها الا انها اذ اثره على محور واحد ألا وهو ميلها الفطرى الى نوال كمال تشهر به في صميم فؤاد ولا تستطيع التخلف عنه الا أن عوث بحسرة .

اهتم عقلاء العالم من القدم بهذيب أخلاق النوع البشرى ولهم في ذلك آقاويل يضيق المقام عن إيرادها واسننا نكاف أنفسنا اقامة الدليل على عدم صلاحيتها الا باستلغات النظر الى أحوال الامم العظيمة ذات الشهرة التاريخية . نعم ان أقل نظرة في شؤونها واتجاه أمياله تدلنا دلالة صريحة على ان قادتها لم يتقنوا على الناموس الأعظم في تربية الاحساسات وتهذيب الطباع وهو ناموس الاعتدال . بل نرى ان منهم من جعل محاسن الاخلاق قاصرة على أمته وأباح ارتكاب الرذائل ضد سواها ويرى هذا الأثر بغاية الوضوح في كثير من الامم التي كان لها سلطان قوى على غيرها ولدينا على صدق هذه الدعوى أدلة لا يستطاع حصرها بوجه من الوجوه وهذا كمالا يخفى تغريظ في حق الكمال لا يسكن به الفؤاد ولا

يرتاح له الوجدان ويقطع الطريق على النفوس فلا تستطيع أن تتابع السير إلى
 غرضها الكمال الذي فطرت مسوقة إلى تملكه وتحسسه . ومنهم من أفرط في كبح
 جماح النفس وقرر لزوم قتل كثير من أمياله وأحاساسها لدرجة تضيق الذرائع
 عن تحمّلها إلا لوقت محدود . هذا الإفراط كانت نتائجه لا تقل عن نتائج التفريط
 الذي سبق ذكره فلم يسر على أفراد أمة إلا وأخل نظامها وقوض أركانها وجراها بها
 من الفتن الاجتماعية ما يطالب علمه من مطولات التواريخ . وهذا الإفراط في تريبض
 النفوس يصادف غالباً في الأمم التي أساءت فهم دينها ولم تقف عند الحد الذي قرر في
 شريعته الأصلية . نعم لأن ذلك أن من الأديان من جاء أمرها بالزهادة المطلقة
 والخروج الكلي عن دائرة الأشياء الأرضية ولكن غاب عن أهل هذه الأديان أن
 هذه الديانات لها زمن محدود ويستحيل أن يعمل بها بهدم ضيق وانهم لم يقصد منها إلا
 أحداثاً حدثت في الوجود يراد منه إهداد النفوس لارتفاع درجة نهائية لا يمكن أن
 تتيسر إلا به . وأن يهدمها الطريق بتهنيء الطبيعة الانسانية لقبولها . وهذه
 الدرجة النهائية التي تدعى انها غاية ما يمكن الوصول إليه في تحديد الشهوات والنزعات
 هي خطة الاعتدال . نعم الاعتدال هو الناموس الأعظم الذي ينبغي عليه قوام كل
 شيء ويحفظ به كيان كل شيء . أتريد برهاناً على ذلك . انظر إلى جميع الكائنات
 السفلية والعلوية من أول الذرة المادية البسيطة إلى أكبر نجم في قبة الفلك ترها
 كلها السنة ناطقة بالاعتدال مساكها وملا كلها وان به كلها وانتظامها . نعم
 الاعتدال هو نظام كل شيء فلا تستطيع أن تعمل كمال شيء من الأشياء إلا به كما
 لا يمكنك أن تعزو الاختلال في شيء إلا لفقدانه . لم يبق ريب الآن عند كافة علماء
 الأرض في أن الاعتدال هو القاعدة التي يجب أن يبنى عليها كل عمل وترد إلى حدودها
 كل حاجة سواء جسمية أو نفسية . ذكركل أحوال طائفة من متعبدين زعموا
 أن نوال الدرجات الزاني في الآخرة لا يتأتى لهم إلا بقتل سائر خصائصهم النفسية
 وحرمانهم من كل ما تنوق إليه طبيعتهم بأنواع من التريبض تسلك عن احتمالها طاقة
 البشر ونسب اليهم من الفظائع والأمور الوحشية ما لا تصدر إلا عن مسهم ضربتهم

الجنون الشديد ثم قال (هؤلاء المتعبدون الذين يريدون أن يمتدوا تأثير الطبيعة عليهم صاروا في الحقيقة ضحايا شهواتهم التي تنهشهم لأنهم بدلا عن تنظيم حالتهم باعطاءهم طاعتها في حدودها المعتدلة أرادوا يجنونهم أن يستأصلوا شأفها)
 كل هذا شأن سائر الاعمى في الافراط في شهوات النفوس وأمياها أو التفريط في كبح جماحها - حتى اسفرت سماها الحق بنور الاسلام وانكشف عن حياء الفضيلة الحقة كل لثام فنزلت آى الله تعالى مندة بالغالين والمقصرين منذرة اياهم بسوء الانقلاب في الدنيا ويوم الدين مقرر اصول الاعتدال على قسطا من مستقيم مدعمة قواعد الفضيلة على مخدج حكيم .

نظرت الى منازع الانفس نظرة الحكيم الخبير فلم تقرر لزوم قتل واحدة منها بل طابعتها من حيث يعالج الطبيب المريض بارشادها الى ناموس الاعتدال وأرتها ان الزرع عنه الى الافراط أو التفريط يفضي بالانسان الى المآل المحمدمغيبه ولا تسر هاقبه . علمتنا هذه الآى الكريمة ان الله تعالى لم يخلقنا من عالم العدم الى الباحة الوجود ليغذي بنا بأنواع العبادات الشاقة التي تميم احساسات الانفس وتفرجها عن دائرة الكمال الانساني بل خلقنا ووهبنا كل ما نحس به من العواطف لنبلغ به ما هد لنا من الرقي النفسى بسيرنا على مقتضى الحكمة العجيبة وارتنان كل ما أمرنا به من أنواع العبادات الجسمية أو القلبية لايقصد به الاتكالت النتيجة قال تعالى (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون)

يصرح لنا الاسلام بأن الغلو في الدين ليس من الامور التي يكاف الله تعالى بها عباده بل انه يتنزه عن ان يحملهم فوق مقدور طاقتهم (لا يكاف الله نفسا الاوسها) بل كما يلدنا للتاريخ عليه من آثار الغلو الذى أهلك الاعم وأبادهم هي من مخترعات أفكارهم قال عليه الصلاة والسلام (اياكم والغلو في الدين فانما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين) تصدى الاسلام لمن يظن ان الهالك في العبادة واضناه الجسم فيها ما يبرهن للخالق جل شأنه شدة الاخلاص فقرعهم

على ظن أفضي بهم الوصف الله تعالى بغير صفاته الكمالية وانذرهم بان تم السكهم
هذا فضلا عن كونه ذاهبا سدى فانه يجبرها بهم سخط الخالق وغضبه . قال
عليه الصلاة والسلام (من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الذنب مثل جبال
عرقه)

الاسلام دين السعادين وناموس الحياتين لم يقرر في مبادئه الا التقطاع الى التبتل
(من تبتل فليس منا) ولا تجنب الحياة الاجتماعية والمساكن الحيوية بالهرب الى
رمان الجبال والانتطاع عن سائر الاعمال . كلا . كل ذلك عاينة في الاسلام
ويستلزم غضب الملك العلام . روى ان رجلا اتى الجبل ليتعبد فيه فجى به الى
رسول الله صلى الله عليه وسلم لم فقال (لا تفعل انت ولا احد منكم لصبر واحد كم
ساعة في بعض موطن الاسلام خير له من عبادة احد كم وحده اربعين عاما .)
هذا شأن الاسلام في الاعتدال في الدين الذي هو مالكة لازمة النفوس وقائدها الى
نعيمها في الحياتين ولا يختلف عن هذا شأنه مع اميال النفس ومطالبها . فقد
قررنا انه لا يأمر بقتل عاطفة ولا بامانة ترعة بل يسي في جعلها معتدلة قوية بلا افراط
ولا تنريط . فالسقاء مثلا وهو ذلك الخلق المحمود لا يعد فضيلة في الاسلام الا اذا
روى الاعتدال فيه وبدون ذلك يكون ذنبا يحاسب الانسان عليه قال الله تعالى
(وانت ذا القربى حقهم والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تمذيرا ان المبذرين كلوا اخوان
الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا) ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا
تبسطها كل البسط فتعده لوما محسورا .) ثم ما قولك في التواضع . التواضع
هو ذلك الخلق المحمود الذي يرفع صاحبه هفوا الى مقام الشرف والمجد وهو من
السجاي التي يحثنا الاسلام على التخلق بها قال عليه الصلاة والسلام (لو كان التواضع
في قاع بئر لبعث الله اليه ريماء ترعه) ولكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتأخر عن
تخديرنا من الافراط فيه لدرجة تفضي بنا الى المهانة والصغار وترميننا الى حضيض
المذلة والابتذال وينهنا الى التفرقة بين من من الناس يحسن لديه التواضع ومن
منهم يليق الترفع لديه حتى يكون الرجل بمثابة منبها كهاو جمعة الهوعظ . قال عليه

الصلوة والسلام (ومن لا يؤجر لك لا تؤجر له ولا كرامة * لانصاحب من لا يرى لك من الفضل كمثل ما ترى له * اذ ارأيتم المتواضعين من أمتي فتواضعوا لهم واذا رأيتم المتكبرين فمكبروا عليهم * الكبر على أهل الكبر صدقة وهكذا ترى الاسلام مع تعليمنا بقدر مكارم الاخلاق وبتأثيرها على صرا كزنا في الحياة الأخرى يريدنا جادتها الحقيقية وخطتها الحكيمة حتى لا يكون الانسان حلوًا فيؤكل ولا مرًا فيلفظ كما هو معنى حديث شريف وهو الامر الذي ينافي شؤون الحياة الاجتماعية ويعطل من رقيها كثيرا .

قل بأبيك ما يكون شأن الطغاة في أمة أفرطت في السجاياء المحموده وأخر جتها عن حدودها المعتدلة والى أى نقطة تصل شره المعتدين اذا صادفوا عند كل جرعة عفووا بازاء كل ذيلة سهاها . أما تكون النتيجة تنادى الباغين في بغيمهم واخلاقهم بسميات الأمن والطمأنينه . أما تكون النتيجة حرمانهم من التهذيب والأدب الامر ان اللذان لا يتمان الا بالعقوبات الرادعه والاحكام الصادعه قال عليه الصلاة والسلام (اقامة حد من حدود الله فى الارض خير من ان تطروا أربعين يوما) .

لحياة الاجتماعية شؤون يضيق كتابنا هذه من درس بعضها درساً سطحياً وهى تستلزم نقطة من كل عضوفها وجلدا على تحمل عواذها وفطنة على حل مشكلات دواعيها بل هى الحرب العوان التى يصلها الانسان من يوم ميلاده الى يوم نهاية حياته . حرب أعلنتها المطالب الجسمية والنفسية وشبهتها الضرورات الحيويه . حرب لامناص منها لمن أراد الكمال وتوسم العلا فى دار المآل . حرب أذن الله ان يشب لهيها ويتأجج شعيرها لتبعث النفوس الى اظهار خفاياها وتحضها على استعمال خصائصها وسجاياها لكيلا يكون الانسان تائه عن أسراره ضالاً عن عجائب أحواله (ونبشوا كباشر والخير فتنة والينا ترجعون) ☐

هاهى العائلة قل لى بأبيك كيف يكون حال الأدب فيها اذا كان أبوها مفرطاً فى

مكارم الاخلاق افرادا يجعله يتجاوز هن كل سببة تصدر من اطفاله ويعفون
كل ذنب يحصل منهم . اليس يؤول حالهم الى التماضى في النسي ونسأتهم على
عدم احترام القوى الوازع التي سـ يصادفونها أمامهم يوم يكونون رجالا عليهم
تكاليف الحياة لاشك ان فائلة رزئت باب مثل هذا يكون حالها الحل وشأنها
الخطل ويكون ذلك الالب في نظر شرعية العادل مجرما يجب تنبيهه الى خطه
الاقتدال . ان صح هذا في العائلة فهو في الجمعية أصح واصر
جاء الاسلام فأنقذ النفوس الانسانية من شقاء التفريط في الاميال النفسية
والافراط فيها وخط للبشر خطة معتدلة ثلاثم سنة الوجود تناسب قوانين الحياة
على يسمع لنفسه ان تنال حريتها الحقه فترتقي في معارج الكمال بانتظام وسلام .
(وكذلك جعلنا كمأمة وسطا لئلا تكونوا شـ هداة على الناس ويكون الرسول عليكم
شهيدا)

تصحح الاعتدال

قد تكلمنا في فصولنا السابقة على لزوم تطهير النفس من أضرار أوهاها بالظهور الملائم
لها وهو العلم الصحيح واستكنها لاسر صحتها وهو قانون الاعتدال في امتاعها
بساتر أميالها وبقي علينا الآن معرفة ماهية سماعتها واطمئنانها فنقول . ان ترى
امام أعيننا بعضا من الناس قد رزقوا صحة عظيمة وزوة جسيمة وتمذبوا بانواع
العلوم والمعارف ولكنهم كثير والفجر شديدو الحيرة لا يكادون يشـ هرون
بالراحة ولا يمتدنون بملذه كأن لهم في كل لذة ألما وبازاء كل فرح ترحا . يحسون
بكآبة قد رانت على صدورهم فلا يعلمون سببها ولا يعرفون موجبها . كآبة
لا ترايلهم الابز والعة ولهم عنهم بكأس من الرحيق فلذلك تراهم شديدي الكف
به كثيرى النحرق لفقده لانه دواؤهم الوحيد .
ماسر هذا الأرق والفجر مع هذه الصحة الجسيمة وتلك الثروة المالمية وهما

الأمران اللذان عليهما (كما يقال) مدار السعادة الانسانية . ماهذه الحيرة والوحشة الغميري به مع تهمذهم بأنواع العلم وهو كما يزعمون الشاقي للناس من نزقات الوسواس . أما يد لنا هذا الضجر السرى هل أن النفس تائقة لأمر ثان وان فابهن الانسان علمه فقد دله عليه أثره . وأن ذلك الامر ليس هو صحة البدن ولا وفرة المال ولا كثرة البنين ولا سكنى القصور ولا أكل الصنوف ولا سماع العبدان ولا مغازلة الغيد بل هو أمر آخر لا تعد هذه الملاذ بالنفس بقله الاهباء ولا الاكوان بجوابه الاقناء .

ما هو هذا الامر السامى الذى لو حصلت عليه النفس اطمانت وسكنت وهامت به وسكرت ورضيت به وقنعت . هو لا شك صحة الاعتدال اليك الدليل . ليست النفس من طبيعة هذه الاجسام الصماء ولا من طينة هذه المادة العمياء حتى تأنس الى شئ من اشياء هذه الارض الحقيرة أو تهميم غلاذهاهم . ما كانت كبيره بل هى من طبيعة نورانية محضة فلا تأنس الا لنور يجلى عنها ظلمات الاشياء الارضية الكثيفة لتشرق على حضرة القدس المنيفه وتطل على حظائرها الشريفة . النفس أجل من أن تقنع بالمشتبهات الجسمانية وأكبر من أن ترضى بعلامها الموهمة الفانية فهم افاط الانسان نفسه بجمع المال ورفاهة الحال ليرتاح سره ويسكن اضطرابه فان النفس لا تنفأ تقيم عليه الحجة بعد الحجة ليهتدى الى وضع المحجة . فان تبصر فى أمره واكتنه حقيقة سره وانال نفسه بقيتها من ابلاغها نورها المرجو لها سكن فؤاده وآب اليه رشاده ولو كان جسمه بين القنا والقنايل وحاله من الفقر فى أخس المنازل . فما هو السبيل الى ابلاغ هذه النفس الماسخة أمانيها وامتاعها بطلبتها من صحة العقيدة السبيل لذلك هو العقل (الدين هو العقل ولا دين ان لا عقل له) .

العقل فى النوع الانسانى خصيصة من أجل خصائصه ومنحة من أفضل منحه الله عليه لو استعمل فيما وضع له واعتنى بعفته واعتداله . بالعقل يستبر الانسان

غور هذا الوجود العظيم على ضخامة أجزائه وعظم أبعاده ويستكنه سير
 النواميس السائدة عليه فيستدل بها على وجود الخالق عز وجل وعلى تنزه أفعاله
 عن العبث وصنائه عن الأهو كما يستدل به على علمه وتديره ورحمته وحكمته
 استدلالا لا محسوسا لا يقبل شبهة ولا يداخله ريب . بالعقل يدرس الانسان أحوال
 الجمعيات البشرية فيرى نواميس رقبها وهبوطها وأسباب رفعتها ووضعها ويتبصر
 في أحوال الانبياء الذين أرسلهم الله الى خلقه هادين مرشدين فيستدل بالتدقيق
 فيما جاؤ به وفي الآثار التي تركوها على معنى النبوة وضرورتها للبشر وحكمة الله
 تعالى في اختلاف المدارك والاحساسات وفي تباین الملل والديانات . بالعقل يميز
 الانسان بين أحوال الماضي والحال فيفرق تبعا لذلك بين الديانات الخاصة وبين
 الديانات العامة ويعثر بتعضيد العلم والبديهة على الديانة التي يجب أن تكون
 خاتمة الأديان كلها وباقية بقاء النوع الانساني .

قصت مرآة الله جل شأنه أن يكون الا كوان في الطبيعة على ترتيب محكم ينطق
 بلسان الصمت للتبصرو يظهر بلباس الوضوح للتفكر ويجب اليه الانتقال منه
 الى غيره بدون أن يشعربل ولا سائمة ولا يؤوب من استبصاره بندامة . بدون
 هذا الاعتبار بالعقل لا يأتى للنفس أن تصفح عقيدتها ولا يأتى لها تبعا لذلك أن
 تسكن من اضطرابها . هذا ولا ننكر أنه قد مضى على النوع الانساني زمن كان
 فيه العقل في دور الظنوليه وكان يكفيه في الايمان أن يندهش لامر خارق للطبيعة
 يعطل من سير نواميسها وقتانا وكان الله سبحانه وتعالى يرأف بعباده فيرسل
 اليهم رسلا يعيدهم بخصائص تعجز عن اكتناها مدبرها عقولهم وتندهش لها ألبابهم . ثم
 فيستدلون بهذه المعجزات على صدق الرسول وضرورة اتباعه وأما الآن حيث بلغ
 العقل أشده والنوع الانساني رشده فلا تجدى فيه معجزة ولا تنفع فيه غريبه .
 لأن الشكوك قد كثرت مع كثرة المواد العلمية فان حدث حادث من هذا القبيل
 رموافاعه بالتدليس أولا ثم اذا ظهر له . ثم برأته منه أخذوا به لآلوه معجزته بكل أنواع
 التعليلات هذا من جهة ومن جهة أخرى فان طائفة الاسيريت في أوربا تعمل الآن

من الاعمال المدهشة الخارقة لنواميس الطبيعة ما لوراء الجهلاء لظنوا انه من اكبر المعجزات مع ان القوم لا يدعون النبوة ولا يزعمون الرسالة نعم لا ننكر ان أعمال هذه الطائفة ليست من نوع معجزات الانبياء عليهم الصلاة والسلام ولكنه بدون شك يقلل من اهميتها في نظر الذين يقفون مع ظواهر الاشياء . وعما يدل على ان هذه القرون الاخيرة لا تروج فيها مسائل المعجزات تكذيب علماء أور ويا بكل المعجزات السابقة وهو وان كان تمورا منهم الا أنهم مصيبون في قولهم اننا في زمان لا يجدي فيه للاعتقاد الا النور العقلي والدليل العلي . ومن اقرب الشواهد لذلك ما كتبه المسيو هنري برنجيه في مجلة المجلات الصادرة في ١٥ مارس سنة ٩٨ قال ما معناه . ان العلم والتاريخ قررابطلان كل هذه المعجزات (معاذ الله) وانكهم لم يستطيعوا ان يذكروا الروح التي بعثت اليها . أما نحن الآن فلسنا بمحتاجين الى معجزة مما فان معجزتنا الوحيدة المألدة هي هذا العالم العالى الذى لانهاية له فانه أصح في ايقاظ احساسنا الدينى من كل المعجزات الماضية . انتهى .

لهذه الاسباب جاءت الشريعة الاسلامية تدعو الى السبيل الحق يبدائه العقل وقواعد العلم صارفة النظر عن المعجزات واطهار المدهشات لعلم الله سبحانه وتعالى بأنه سيأتى زمان تؤثر فيه المقررات العلمية على القوة العقلية ما لا تؤثر عليها الخوارق لنواميس الطبيعة . نعم جاء الاسلام يخاطب العقل ويحاسب الفكر ويناشئ الغفظة فلا يدعوا الى الاعتقاد بوجود الله حكيم قادر الامع تنبيه العقول الى الدليل الحسى على ذلك ولا ينفى عنه الشريك ولا يثبت اليوم الآخر الا بالاعتقاد بذلك بالبرهان وتقويته بالحجة المحسوسة .

علم الله ان كثير من ذوى الاهواء فى الامم الطامعين فى الكبرياء والعظم قد يحسن لهم الظمع ان يدسوا فى الدين اشياء يرغمون بها أنوف العامة ويقودونهم بها الى حيث توعد اليهم شهواتهم فقرر فى دينه الأخير ان كل دعوة من هذا القبيل يجب أن يطلب الدليل العلمى عليها فانه هو وحده الفارق بين الحق والضلال والمتبطل لعزائم أهل البطلان قال تعالى (قويل للذين يكتبون الكتاب بأيهم ثم يقولون هذا من

عند الله ليشتروا به غنا قليلا فويل لهم عما كتبت أيديهم وويل لهم عما يكسبون) وقال تعالى (قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين)

انحى الاسلام بالوهم والتعزير على الذين ديدنهم - تم تقليد آباءهم - تم تقليد ائمتهم والجمود على ما ورثوه منهم - من الاعتقادات الباطلة بدون روية ولا تحقيق فانذرهم بسوء المنقلب وشرا العذاب فقال تعالى (واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا اويل تتبع ما وجدنا عليه آباءنا اولو كان آباؤهم - م لا يعة لول شي اولا يهتدون .)

قرر الاسلام بأن حجة الرجل يوم القيامة بأنه انما قلده غيره وتابعه لا تحججه من فائدة العقاب مادام له عقل يعيز بين الخبيث والطيب وبين الضار والنافع قال تعالى (واذيتما جونا في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبع اقول انتم مغنون عنا نصيبا من النار قال الذين استكبروا انا كل فيما ان الله قد حكم بين العباد) وقال تعالى (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير)

صرح لنا الاسلام بأبلغ عبارة بأن الحجة القوية وحدها هي عماد الدين ومسالك الاعتقاد فمن فقد هاد قد جنى على نفسه جناية عظيمة وأوقعها في مصيبة كبرى لأنه يكون بمنزلة من فقد هاد قد فقد أعظم دعامة يستند عليها يوم الحساب الا كبرية قال الله تعالى (ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم فعملوا ان الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون) هذه هي قواعد الاعتقاد في دين الاسلام وهي مطابقة تمام المطابقة لما أقر عليه جمهور فلاسفة أعم الارض في هذه القرون الأخيرة من ان كل قاعدة لا يقررها البرهان يجب أن يسحب عليها ذبول النسيان . فقل لي كيف يمكن أن يتطرق الى عقيده مسلم عالم بحقيقة الاسلام بعد أن يسمع نداء الحق في صميم وجوده انه يرعه عن ورود الاباطيل ويردعه عن التعلق بالاضاليل قائل انه (ولا تقف ما ليس لك به علم ارا السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا) بل كيف يتأقلم مسلم مهتذب أن يجارى الهوى ويتبع كل من خيل وغوى بعد أن يتعش في جواهر فؤاده ما قاله الله تعالى في وصف أهل التغفل الذين يقبلون الضلال

ويحمدون عليه ويجهلون أنفسهم وقمائل تصديق الحرافات وهو قوله تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم اضل أولئك هم الغافلون) اللهم بصربا دينك وهدودين المدينة الحقه وهبنا من لذلك ثباتا على اتباع نهجك القويم وازفع عن أفكارنا ما تكاف عليه من صدا الأوهام انك سميع مجيب (قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين)

المطالب الجسمية

قد أتممنا الكلام على المطالب النفسية ولم يبق علينا الا الكلام على المطالب الجسمية . وهو القسم الذي يتعاده بالقسم الأول وتناسبه معيتهم للانسان الحصول على سعادته التي ينسى وراءها من يوم خلقه لأن فنقول : تنحصر السعادة المادية في أمرين وهما حفظ الصحة والاعتدال في التصرف بمقومات الجسمان فالتكلم على كل منهما في فصل مخصوص

حفظ الصحة

قدمنا في فصولنا السابقة ان صحة العقل وهو المميز الأول للانسان عن الحيوان تتعلق بصحة الجسمان تمام التعاق وأقل نظرة في أحوال الانسان تتعنا بصدق هذه النظرية . وقد أدرك فلاسفة العالم المتقدم هذا السر العظيم فتراهم يهتمون جدا بأمر الصحة اهتماما لا مزيد عليه ويقررون كثيرا من القواعد المقومة للبدن والحفاظة لقوا ليمارسها الطفل مع القواعد المقوية للعقل والنميمة له في آن واحد وجعلوا أهميتها لا تنقص عن أهمية تعليم مبادئ العلم في شيء . قرروا كل هذا بعدما زعموا أن الأديان تسمى جهدها في ملاشاة الصحة ولا تعب بالنعيم الأبدى

الامن لوى الكشح عن امر جثمانه وتمكنوا على هذا ما شاؤا عما لا ترى لزوما
لأبائته هنا بل نقول سبق الاسلام كافة البشر الى وضع القواعد المهيبة الحقيقية
البنية على ارتباط صحة العقل بصحة الجسم وجعلها أساسا من الإيمان وحمل
كافة متبعيه على الاستثمار بها والالتفات اليها كما أمرهم بالالتفات الى غيرهما من
قواعده ونص بأنهم ان أكبر النعم التي بهم الله تعالى للعبد ولا يقصدها في علو
المرتبة الا كلمة التوحيد قال عليه الصلاة والسلام (سألو الله العفو والعافية فان
أحدكم لم يعط بعد اليقين خيرا من العافية) .

ولم يكتف بهذا بل قرر من مبادئه الأولى كل ناموس عام لحفظ الصحة وتوحييم الجسم
مثل النظافة والرياضة الجسمية والعقلية فقال عليه الصلاة والسلام الطهور
شطر الإيمان • أحب الخليل الى الله اجراء الخليل والرحي • رزقوا القلوب سعاة
فساعة ٥

أما الامراض فان الاسلام يعتبرها هذابا من الله تعالى يبعثه على المريض جزاء له
على تعديه لنواميس المقررة وعصيانه للقواعد المهيبة الثابتة قال عليه الصلاة
والسلام (المريض سوط الله يؤدب به عباده) فيجب على المسلم والحالة هذه اذا اصابه
مرض اى سوط هذاب من الله تعالى ان يسعى في الانابة الى سبيل الاعتدال في شؤونه
الحيوية ولا يتأني له هذا الا باستشارة طبيب حاذق عالم باصول نواميس الصحة
دارس لقواعد الطب قال عليه الصلاة والسلام (تداووا يا عباد الله فان الله لم ينزل
دواء الا أنزل له دواء) قلنا طبيب دارس لقواعد الطب لان الاسلام يحذر نمان الوقوع
في مخاتل الدجاجلة وينذرهم بالمسؤولية العظمى قال عليه الصلاة والسلام (من
نظيب ولم يعلم منه طب فهو ضامن) ثم ان عجزت الاطباء عن مداواة العلة بقدر ان يبذل
الانسان وسعفه في المعالج فان الاسلام يبشر الصابر على دلائه باحسن الأجور في الدار
الآخرة هذا وديننا القويم يعتبر ضعف البنية وقلة القوة من الاهرار التي تؤخر الرجل
عن نوال الدرجات الزلفى في الآخرة لانها غالباً تكون نتيجة الافراط في أمور الحياة

ومقدمات التسكاسل هن أداء واجبات الدين ولذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام
(المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف)

الاسلام لا يبيع لأى مسلم ان يتهاون بامر صهته لأى غرض كان حتى فى عبادته به
والاخبار له روى عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال لرسول الله صلى الله عليه
وسلم يا عبد الله ألم أخبر انك تصوم النهار وتقوم الليل فقلت بلى يا رسول الله قال فلا تفعل
صم وأفطروا ومنهم فان جسده عليك حقا وان لعينك عليك حقا وان لزوجهك عليك حقا
وان لزورك عليك حقا وان بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام فان لك بكل حسنة
عشر أمثالها فان ذلك صيام الدهر كله فشدت فشدتهلى فقلت يا رسول الله انى أجد
قوة قال فصح صيام نبي الله داود عليه السلام ولا ترد عليه قلت وما كان صيام نبي الله
داود عليه السلام قال نصف الدهر وكلن يقول بعد ان كبر يا ليتنى قبلت رخصة النبي
صلى الله عليه وسلم لاشك ان كل هذه القواعد تجعل المسلم شديد التحفظ على صهته
كثير الغيرة عليها وهذا الغرض الذى يسمى فلاسفة هذا القرن ان ينقشوه فى أذهان
العامة حتى يهتموا بالنظافة والصحة فتقل الامراض وتختف آثار العدوى

الاعتدال فى مطالب الجسمان

يعلم كل انسان ان الجسم مطالب كثيرة وكلها ضرورية للحياة على شريطة الاعتدال
فبها فالغذاء وهو أول المقومات الجسميه قد ينقلب ضربة قاضية على الحياة اذا استعمل
بافراط او اذالم تراعى فيه القواعد الصحية كجمع المتعاكسات من المواد الغذائية
ولهذا فقد أجمع عموم أطباء العالم على ان ملاك الصحة الانسانية هو الاعتدال فى
الشهوات الجسميه هذه القاعدة الرئيسة جاء الدين الاسلامى فلم يحرم علينا شيئا
من الطيبات قط بل أباح لنا الاكل والشرب من كل شئ صحى ولمكن بشرط عدم
الاسراف قال تعالى (قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق)
كلوا واشربوا ولا تسرفوا

ليست الزهادة في الاسلام بالتأثم عن لاذن المأكل ونهض الفواكه وحرمان النفس من كل ما تشتهيه . كلا . فليست قرراته مثل هذه الزهادة التي قد تنافي الحياة الاجتماعية وتهدم صروح المدنية . كلا . قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين وكلاهما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون)

في هذه المناسبة نقول ان ديننا القويم كالم يحرم التمتع بلذات المأكل كذلك لم يمنع التحلي بجميل الملابس قال عليه الصلاة والسلام (مانع أحدكم أن وجد سعة من المال أن يتخذ ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوب مهنته) ولم يكتف ديننا الخفيف بهذا بل يرغبنا في التجميل والتزين اذ المنة تدبر ربة بل تصديه ارضاء الخالق جل وعلا في اظهار نعمته والتحدث بكرامته قال عليه الصلاة والسلام (من كان له شيء من خير الله تعالى فليكرمه) أي يسرحه وقال عليه الصلاة والسلام (ان الله يحب كل جميل الريح جيد الثياب) وجاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فلنظر اليه ثم الهيئة قال مالمالك قال من كل المال قد آتاني الله تعالى فقال ان الله تعالى يحب اذا أنعم على امرئ نعمة أن ينظر الى أثرها عليه .)

الواجبات العائلية

للعائلة في المجتمعات المتقدمة شأن خطير ومقام كبير فانها بالنسبة للجمعية الكبرى كالافراد بالنسبة للعائلات الصغرى فاذا صلحت الثانية صلحت الأولى والعكس بالعكس ولذلك ترى فلاسفة الاعم خصوصاً في هذا القرن يوجهون أكبر همهم الى اصلاح شؤونها وتعليم العامة كيفية اقامة أودها بالطرق العلمية المثل . أما كنه هذه السعادة العائلية فينحصر في أمرين رئيسين وهما صلاح أديبا وماديا وهذان الأمران منوطان ولاشك برئيس العائلة ومطلوبان منه كأكثر واجب تقضي به شريعة المدنية الحقيقية من هنا ناتي على طائفة أب العائلة واجبين يفرض عليه تأديتها على حسب ما تحكم به سنى الحياة . فنقول

﴿ الواجب الاول اصلاح حال العائلة أدبيا ﴾

أداء هذا الواجب من الر جل لعائلته يستلزم أمرين رئيسين أحدهما اعتباره أمراته شريكاً له في الشؤون العائلية واعطائها حقها من النجالة والتكريم . ثانيهما اعتبار نفسه قيماً على أطفال سيكونون غداً أرباب عائلات مثله وأعضاء الجمعية لها مقام في الوجود تؤثر عليها تربية أفرادها ان خير الخير وان شراً فشر وان هذه الجمعية قد ينشأ فيها فرد يرفع مجدداً الى عنان السماء وقد ينشأ فيها آخر يدهورها الى حضيض الدل والشقاء وان مناط كل ذلك هو التربية في سن الطفولة على المبادئ القويمة أو السقيمة . وان الأب أحد المسؤولين عن كل جريمة تصدر من أحد أفراد عائلته التي رباهما في حالة ما اذا كانت تلك الجريمة صادرة عن سوء ادارته في التربيته والتأديب . بهذه الامور جاءت شرعة المدينة الجديده وعليها بنيت كل نظريات التربية العائلية .

نقول سبق الاسلام كافة العالمين الى تقرير هذه المبادئ القويمة فقال من حيثية عدم اهانة النساء والحث على اكرامهن واحترامهن بلسان النبي عليه الصلاة والسلام (ما أكرم النساء الا كريم ولا اهاتن الا لثيم) و (احملوا النساء على أهوائهن) وفي قوله تعالى (وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً) دليل جلي على ان المرأة شطرا عظيم من تربية اطفالها وتأديبهم وأمان جهة انطباق الاسلام على ما جاء في الامر الثاني فيكون فيها هذا الحديث الجامع (كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته) بهذا النص الصريح صار الأب مسؤولاً عن أعضاء عائلته فرداً فرداً ومفروضاً عليه تعويدهم على مكارم الخلال وشرائف الخصال لكي لا يؤخذ بجبريرة الاهیال يوم يوجه اليه هذا المقال (يا راعي السوء أ كات اللحم وشربت اللبن ولم تؤثروا الضالة ولم تجبر الكسیر اليوم أنقم منك)

حديث قدسي

﴿ الواجب الثاني اصلاح حال العائلة ماديا ﴾

ان ما تكلمنا عليه من ضرورة اصلاح حالة العائلة اديبا يتعلق كل يتعلق باصلاحها ماديا وذلك لان اول ضرورة يشعر بها الانسان هي ضرورة حفظ جسمانه من التلاشي فادا لم يسهل لديه الحصول على هذه الضرورة فليجيب لم يجد من نفسه قط باعنا على السعي وراء شئ ادبي مطلقا . وفي الواقع ماذا يكون امر عائلة لا تجد من الغذاء الهنيئ ما يقيم سلامة اجسامها ويحفظ على افرادها قواهم العقلية والبدنية ولا من المسكن ما يقيم عوادي الامطار والاعصار ولا من الملابس ما يحفظهم من امراض الجوارح المجتاحة . أليس يؤول امر عائلته مثل هذه الى خمس درجات التوحش فتكمن الضرورات لافرادها كثر من الدنيا النفسية والخسائس المزرية مع علمك بأن الاحتياج أبو المفاسد الاخلاقية . ثم ماذا يفيد العائلة اذا وجدت غذاء جيدا ومساكنها ملبسا كافين ولم يجد أبوها مالا كافيا ليقضي به ما يجب عليه من اصلاح حاله بمقتول افرادها بارسالهم الى المدارس وابتعاد المربين لهم في كل ما يحتاج اليه الحياة المدنية أليس يتضح من كل هذه الملاحظات الحق ان العائلة تحتاج الى من يصرف عليها بسخاء وان قلة مال أبيها قد يوقعها في أسوأ حالات الشقاء . نعم وهذه القواعد الممدنة جاءت الشريعة الاسلامية السمحاء . قال عليه الصلاة والسلام (ليس منا من وسع الله عليه ثم قتر على هبالة) وقال عليه الصلاة والسلام (ما أنفق الرجل في بيته وأهله وولده وخدمه فهو له صدقة) وليس بعد هذا ترغيب في الصرف على العائلة . وما يدلك على مالا العائلة من الشأن الخطير وما للصرف عليها من التأثير الكبير في نظر ديننا الحنيف ما قاله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الشريف (دينار أنفقته في سبيل الله ودينارا أنفقته في رقبته ودينارا تصدقت به على مسكين ودينارا أنفقته على أهلك أعظمها أجرا الذي أنفقته على أهلك) نعم ان الاسلام لا يأمرنا

بالتقشف المعروف عند العامة من حرمان النفس من كل شيء وجعل المعيشة على درجة من الشظف يعسر معها كل تهذيب أخلاقي ويحرض النفوس يومئذ إلى كسر قيود الدين بالمرّة كما حصل ذلك في كثير من الأمم بل انما ترى الدين الاسلامي يأمرنا بالسعي في اصلاح حالة معيشتنا جاعلا ذلك الاصلاح شطرا منه قال عليه الصلاة والسلام (ان من فقه الرجل استصلاح معيسته ولبس من حب الدنيا طلب ما يصلحك) ولكن كيف يتأتى للرجل استصلاح معيسته اذ لم يكن ذا عمل يستغله أو مهنة يتكسب منها لاشك يجب علينا أن نتكلم على مقام المال والعمل في الاسلام لنبطل حجة القائلين بأن الادب ان تكره العمل للانسان فنقول والله المستعان

﴿ مقام العمل والجهد في نظر الاسلام ﴾

ان أقل نظرة في حالة الجمعيات المختلفة التي تتنازع البقاء الآن على سطح هذه الكرة تدلنا دلالة محسوسة على أن أسبق هذه الأمم كلها في مضمار الفوز بمجاريات السلطة والعلاء هي الأمة المركبة من افراد ألفوا السكد والعمل وتركو الجبن والكسل . وعلى هذا فيجب ان يحسب العمل من ضمن القواعد المهمة المهدنة لافراد النوع البشري والحفاظة للامم حياتهم واستقلالهم . نعم هكذا يعتبره علماء العمران الآن ولاجله ينددون على الاديان زاعمين انها تعجب الكسل للانسان وتقذف به الى حضيض الهوان .

نحن لايمـننا في هذا السكاب الاتبرى الاسلام من هذه التهمة الفاضحة واثبات انهم أقوى العوامل في الترغيب الى الجهد والعمل وان قواعده من أشد القواعد تنفيرا عن الكسل . أجل . الاسلام يرشدنا الى الجهد في العمل للحياة الدنيا بقدر ما يرشدنا الى الجهد في العمل للحياة الآخرة قال عليه الصلاة والسلام (اهل الدنيا لا ينالون كنك تعبس أبدا واهل الآخرة كأنك تموت غدا) وقال عليه

الصلاة والسلام (اصلحوا دنياكم واصلحوا آخرتكم كأنكم تملكون غدا) في هذين الحديثين رد على الذين توهوا ان صلاح الدنيا أمر يغضب الخالق جل شأنه ويستوجب معضه عليهم فنبذوها . نبذ النواة ومحضوا أنفسهم للتعبد والزهادة باضناء الاجسام وانضاء العقول ولم يعلموا أن الدنيا دار حرب وهيجهاء وان القائم فيها يغلب القاعد ويستعبده فيحرمه كل حقوق الحياة وان الطبيعة البشرية لا تلبث حتى تقيم الحجة على مهمل أمرها فينقلب تعبدهم الموهوم فسقا وتنسكهم اجراما . هذا أمر دلنا عليه تاريخ الاقوام التي أفرطت في كراهة الاشياء الدنيوية وفرطت في حقوق ضروراتها الحيوية بسوء فهمها لنصوصها الدينية فلم تلبث ان لعبت بها أيدي الغوائل الطبيعية فارتكست الى أسوأ حالة من الفسوق لو اطلعت عليها لوليت منها فرارا ولملئت منها رعبا .

أما الديانة الاسلامية وهي ديانة آخر أدوار الانسانية فلم تقرر في مبادئها امثال تلك العبادة التي كان يقصد بها معالجة نفوس تلك الامم الصخرية بل قرر ان كل عمل يكون مناسبا لسنن الحياة وملامتا لثوائمه التي تعلى شأن العائلة البشرية وترفع آميال النفس عن حضيض البهيمية يجب ان يعد عبادة خالصة لله تعالى اذ قصد به وجهه الكريم لاشباع نعمة الشيطان الرجيم .

ولما كان كسب المال لاقامة أودال الفرد والعائلة والجمعية والنوع الانساني بأمره هو من الامور التي تساعد على الوصول الى الغاية التي حددتها الله لهذا النوع قرر الاسلام انه من أفضل ما هب به الانسان ربه قال عليه الصلاة والسلام (أفضل الاعمال الكسب الحلال) وقال عليه الصلاة والسلام (من سعى على عياله من حله فهو كالجاهد في سبيل الله ومن طلب الدنيا حلالا في عفاف كان في درجة الشهداء) ولا تحسب ان الاسلام يرغبا فقط في التكسب والعمل بل يفرضهما علينا فرضا ويؤخذنا على تركهما مؤاخذا على افعال أمر لازم . قال عليه الصلاة والسلام (طلب الحلال فريضة على كل مسلم)

أما المال وما أدراك ما المال فهو في نظر الاسلام من أكبر مومات حياة الاممة ومن
 اعظم دعائم الارتقاء لها . قال عليه الصلاة والسلام (سيأتي على امتي زمان يحتاج
 الرجل فيه للدرهم والدينار بقيمة أمر دينه ودنياه) هذا وقد كان بين أصحاب رسول
 الله من الاغنياء ما يكفي ما لهم لتجريد حملة عسكرية كما حصل من عثمان رضي الله
 عنه وهل به مدح النبي صلى الله عليه وسلم للمال الصالح في قوله (نعم المال
 الصالح لرجل الصالح) يقال ان دين الاسلام ينافي الاتراء خصوصاً في مثل هذا
 الزمان الذي أخبرنا عنه صلى الله عليه وسلم . نعم نحن في زمان يجب علينا فيه أن نظهر
 أوامر ديننا القوية في الجود والكسب حتى تنشط الانفس من هزال خمولها وتسمى
 تلك الظنون الفاسدة التي يمس بها بعض من يتكلمون لانفسهم وظيفة التهذيب
 والتعليم فان العامة صارت الآن لا تسمع من ارشاد الدين الا ما ينفرهم عن العمل
 ويبعدهم عن التكسب ويحجب اليهم القنوع والتقصيف وهو ارشاد لم تراع فيه
 الحكمة النبوية من مداواة القلوب بأوفق علاجاتها . أما والله لو كان النبي صلى
 الله عليه وسلم أمر الناس بكراهة المال وترك العمل ولو بقدر جر من مائة عما يفعله
 اليوم بعض المعلمين لما وجد في العناية من ذلك شروى تقيير لانهم رضوان الله عليهم
 كانوا أطوع الناس لسيد الوجود صلى الله عليه وسلم ومع ذلك فأن ترى الأمر بخلاف
 ذلك على خط مستقيم وهاهي أوامر الله تعالى في كتابه الكريم حائقة على الكسب
 وهاهي السنة الشريفة داعية اليه بأكثر مما ترى في كتب مدينة هذا العصر . قال الله
 تعالى (ولا تنس نصيبك من الدنيا) فانتشر وفي الأرض وابتغوا من فضل الله
 وقال عليه الصلاة والسلام (نعم المطية الدنيا فارتحلوها تباغكم الآخرة) وقال عليه
 الصلاة والسلام (ليس خيركم من ترك دنياه لا آخرته ولا آخرته لدنياه بل خيركم من
 أخذ من هذه وهذه) وقال عليه الصلاة والسلام (طلب الحلال جهاد)
 وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً مع أصحابه فنظروا الى شاب زى جلد وقوة
 وقد بكر يسعى فقالوا وبي هذا لو كان شبابه وجلده في سبيل الله فقال صلى الله
 عليه وسلم (لا تقولوا هذا فإنه ان كان يسعى على نفسه ليكشفها عن المسألة ويغنيها عن

الناس فهو في سبيل الله وان كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف فيغنيهم
ويكفيهم فهو في سبيل الله وان كان يسعى تكاثرا وتفاخرا فهو في سبيل الشيطان
يظهر من هذا الحديث الشريف ان كسب المال تابع لنية الكاسب فان قصد به
الفرض الحق كان مأجورا وان قصد به دنائا بالاميال وخسائس الاعمال كان
موزورا ولو كان وجه المكسب حلالا قال عليه الصلاة والسلام (من طلب الدنيا
حلالا مكثرا مافخر اتي الله وهو عليه غضبان ومن طامها استعفا فاهن المسألة وصيانة
لنفسه جاء يوم القيامة ووجهه كاتم لمة البدر) هذا هو القول الفصل في هذا البحث
* بقي علينا هنا ان نتكلم قليلا على ما يستشهد به بعض المثبطين بقول ابن الرزق
مقسوم وأن الكد قد لا يغني قليلا . أما نحن فأول المعتقدين بذلك ولا كذالا
نجتري على اتناه ما استأثر الله بعلمه ولا نحاول التنقيب عن عالم الغيب فإيدري
أن كدى هذا قد يحقق لعلم الله السابق وصلى ولا تارة هذه الافكار التي بسوء فهمي
لها تصدني عن الشغل والاجتهاد وتلفتني عن منهج الرشاد . كلا ان الشريعة
الاسلامية جاءت بقوانين الحياطة المشاهدة المحسوسة وفي تعاليمها ما يدل الانسان
على ذلك دلالة بيينة . فقرر الاسلام ان الله سبحانه وتعالى يقسم رزقه بين عباده
على حسب تفاوتهم في الجد فمن كان جده أكثر كان حظه أوفر والعكس بالعكس
وهذه هي القاعدة التي تبعث الناس الى التسابق في ميدان هذه الحياطة باطمئنان
على نوال مكافأة التعب قال عليه الصلاة والسلام (ان الله يعطي العبد على قدر
جهته وجمته)

يصرح الاسلام بلسان فصيح ان الاقدام والهمة في كل أمر هما ملك النجاح ومساك
الفوز وان الحمول والطأة هما سبب الحرمان وأصل الفاقة قال عليه الصلاة والسلام
(التاجر الجسور مرزوق * التاجر الجبان محروم)
ينادي الاسلام متبعية قائلا ان للحياة قواعد ثابتة ونواميس معينة فمن عارضها
عارض ارادة الله تعالى ومن وفق أعماله على نهجها نال بغيته وفاز بطلبه وان
الرزق والكسب منضويان هما ايضا تحت هذه النواميس المقررة فمن خالفها حرم

ومن لا مهارزق وأن من أهم نواويس الكسب التبكير للحاجة والجديفها قال عليه
 الصلاة والسلام (من جتهد جود لكل مجتهد نصيب • الصيحة تمنع الرزق) وقال
 عمر بن الخطاب وهو أحد من يجب الاقتداء بهم (لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق
 ويقول اللهم ارزقني فقد علمت أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة) ومع كل هذا فإننا نستطيع
 أن نسكت كل معارض ونفحم كل مجادل في السعي على الكسب والجود وراه الأمل
 بقوله صلى الله عليه وسلم (اسعوا فإن السعي كسب عليكم) هذا والاسلام يحجب إلى
 متبعيه الذين يعسر عليهم الكسب أن يهاجروا إلى حيث تسهل لهم المعيشة وتلين
 الحياة هربا من الفقر الذي يقول عنه سيد الوجود (كاد الفقر أن يكون كفرا) وتحاميا
 من أن يكون الانسان عالة على غيره • نعم الاسلام يبعث ذويه إلى السعي في طلب
 قوام الحياة ولو باقتحام الاسفار ومواصلة القسيار وخوض العباب وتجشم الاوصاب
 قال عليه الصلاة والسلام (من أعيتته المكاسب فعليه بمصر الخ) * من تعسرت
 عليه التجارة فعليه بعمان * سافروا تهكوا وتغنوا)

على هذه السنن البينة سارا أصحاب سيد الوجود قال الامام أحمد وكان أصحاب
 الرسول عليه الصلاة والسلام (يتجرون في البر والبحر ويعملون في نجيلهم) • هذا
 ومن يتدبر تاريخ الصحابة والتابعين يرى مثالا لهمة واقدام وعزم يحق للنوع الانساني
 أن يفخر به حقيقة وأن يتوق للوصول إلى بعضه • يرى ماذا • يرى شريفة
 قليلة كانت مغزوية بين الشعاب والمضارب وهي من الفقر والفاقة فكان لا يساورها
 فيه غير هامن الاحم قامت تنفض عن رأسها تراب الحمول والضمة اتمت ما رابا بمثال
 ما قدمنا من الآي الكريمة والاحاديث الشريفة ولم تزل واضحة اياهانصب عينها حتى
 بلغت في مدة ثمانين سنة من الملك وسعة السلطان وامتداد اثر النفوذ ما لم تبلغه دولة
 الرومان في مدة ثمانمائة عام • بلغت هذا الملك كله وأخضعته لسيطرتها بطريفة
 تقرب أن تكون طوعا لا كرها اذا قبست بما كان يستعمله الرومان من ضروب القسوة
 والوحشية واضطهاد المذاهب الدينية • طالع تاريخ القرن الاول من الاسلام تر
 بعينك من عجائب الهمم ما لا نستطيع أن نصفه هنا ولو بوجه عام عما لا تعددهم متدني

هذا العصر بجانبها الا كسلا وجبنا . اذا كان الامر هكذا فإين ذهبت الآن تلك
 الشهامة القلبية والهمة الاسلامية ثم كيف حل محلها العجز والخور حتى عن نوال
 ما كان شائعا عندنا اسلافنا من مكارم الحلال وشرائع الحلال
 لم يكف الامة الاسلامية ما هي فيه من الاستكانة حتى قامت بلسان بعض مرشديها
 تنسب تلك الحالة الى الاسلام زاعمة أن لها الاخرى ولغيرها الدنيا . كلا . ان للاسلام
 الدنيا والاخرى معا (وقيل للذين اتقوا ماذا انزل ربكم قالوا خير الذين أحسنوا في
 هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين * ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي
 الآخرة حسنة وقنعنا ذاب النار) هذا حديث رب الاسلام (ومن أصدق من
 الله حديثا)

لا يجن المسلمون على دينهم كما كثروا فاعلوا ولم ينظروا اليه نظرا عقل وروية ليروا أن
 أكثرهم الآن لا يتبعون الا هواهم وأفكارهم ولا ينعوا علماء المدينة من الالتفات
 الى الاسلام بما يدسونه ظلما اليه وليعلموا أنه سيأتي يوم في مستقبل قريب جدا
 يظهر الاسلام في أور بابل ونقي يشبه ما كان عليه في زمن سيد الوجود صلى الله عليه
 وسلم (سفرهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق * انه كان
 وهذه مفعولا)

الواجبات الاجتماعية

لا يتخلو أي انسان خصوصاً في العصور المتقدمة من أن يكون . (أولا) عضواً في جمعية
 يحكم بقانونها ومشايطر اعضائها الآخرون في المعتقد واللغة والمقتضيات الطبيعية .
 (ثانياً) يكون مرتباً بعلائق الوطنية والحكومية مع قوم ينافونه في المعتقدات
 والعادات . (ثالثاً) تكون جمعيته التي يكون هو عضواً منها مسالة لاتحاد المصالح
 لجمعية أخرى تنافسها في سائر الحينيات أو في أكثرها . (رابعاً) تكون جمعيته معادية
 لجمعية أخرى لاختلاف المسائل الحيوية بينهما . فالثلاث أحوال المتقدمة لاتخلو

منها أباد جمعية . من الجمعيات الكبيرة الحية وقد ينضاف إليها الحال الأخير حينئذ من
الاحيان أو أحيانا كثيرة على حسب أهميتها في الوجود فان ترى باهينتان أكثر
الأمم مدنية راهمية تجبرها دواعي الاستعما والى مواصلة المروب كل أن حرصا على
مصالحها ولومع قبائل صغيرة

يجزئ النظر الى هذا التقسيم يوجب الاعتراف بأنه تقسيم طبيعي لا مناص منه لانه
لسان حال كل أمة مقدنة وغير مقدنة معاصرة لنا أو بعيدة العهد عنا . تقول الآن
ان كل شريعة عادلة يجب أن تضع لكل من هذه الأقسام الاربعة واجبات تنفيها
رهاياها بلاحظتها امام كل قسم منها بشرط أن تكون تلك الواجبات منطبقة على
العدالة الحققة وموافقة لسنن هذا الوجود وهذا أمر لم يتوصل الى اتصافه وتنفيذه
على حسب نوااميس العدل الحق الى هذه الساعة الا الدين الاسلامي واليك التفصيل
والبرهان .

الاسلام يقسم العالم في نظره الى أربعة أقسام كقد مضى ويحدد بالنسبة لكل قسم منها
واجبات خاصة . فنفرض على المسلمين مراعاتها وملاحظتها . فالتناس أمامه
تنقسم (أولا) الى مسلمين . (ثانيا) الى ذميين وهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى
الذين يكونون في ذمة الاسلام ومحكومين بقوانينه (ثالثا) الى معاهدين أو مسلمين
لحكومة الاسلام (رابعا) الى محاربين له . فلنتكلم الآن على الواجبات
المفروض على المسلمين مراعاتها بالنسبة لكل قسم من هذه الاربعة أقسام
فنقول .

❦ واجبات المسلمين بالنسبة لبعضهم ❦

يجب على المسلم بالنسبة لساائر المسلمين أن يلاحظ نحوهم كما تستلزمه الاخوة الحققة
مثل المحبة والمساواة في سائر الحقوق الطبيعية والسياسية . نعم يجب على المسلم
أن يمتنع سائر أعضائه الجمعية اخوانه بصرف النظر عن اختلاف شؤونهم وتباين

أصولهم وألوانهم وأن لا يكون مناط التمايز بينهم إلا المزايا التخصيصية والمكتسبات
الذاتية مع جعل هذه الميزة موكولا بالحكم فيها إلى جانب الخالق جل شأنه وعدم
غناها عن صاحبها أمام القانون العادل . أما المحاب بين المسلمين فهو شرط أولى
في شرائط الايمان لقوله عليه الصلاة والسلام (لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن
تؤمنوا حتى تحابوا) ونريد هنا أن ننبه أن هذه المحبة يجب أن تكون صادقة خالية من
شوائب الرياء والادهان والاصارت نفاقا لن ينكشف سره اليوم في الغد . ولهذا
يجب السعي في تطهير تلك المحبة وجعلها خالصة كما يسعى لتطهير الايمان من شوائب
المكفرات حتى يتم له الحصول عليها ولن يتم له ذلك إلا بالتبصر في مبلغ علاقته مع بني
ملته وفي نتائج كونه اليهم أوابة عاده عنهم وفي هواقب الاخلاص لهم أو مداراتهم
بشرط أن يكون هالما بحقيقة الحياة وتكاليفها يرى رأى العين أن حمايته مرتبطة
بحياتهم وموته بموتهم . إذا تم له الحصول على هذا التبصر كما يجب يجد نفسه
مسوقا رغم أنفه إلى اخلاص الحب لبني ملته كما يكون مسوقا للدلتجة إلى حصن شامخ
هر بامن سيل جارف . هذه المحبة التي يدعو إليها الاسلام هي مناط كل سعادة
اجتماعية وملاك كل مدينة حقيقية أدرس أحوال الأمم المتدنه وتأمل جيدا في
دقائق أجزائها تر أن أكثر الأمم عساكين أحادها وتلاصقا بين أفرادها هي
أسبغهم إلى مضممار السعادة الحيوية وأولهم كلمة في الأحوال العمومية . ترى
مثل هذه الأمة لا تعثر حتى تقوم ولا تمهد حتى تنشط فيمنع تراها مرتبكة في
أمورها الخارجية ومهتدة في منابها الحيوية مما يقرب اليك الجزم يقرب
سقوطها ووشك انحلالها لا تلبث أن تراها قامت تنفض عن رأسها غبار الارتباك
وصاحت بمن يناوهم من كل جانب فبددتهم بغير سلاح ورفعت في سرهم
الاقداح . هذان أسرار التماسك الذي هو نتيجة المحبة وليس مآثره في الأمم
اليوم الاجزأ يسرا عما كان بين آبائنا الأول فرفعهم إلى أوج لم ينله إلا نغيرهم
وأوصلهم إلى محمد لم يتق اليه سواهم . تم لهم ذلك بعد التقاطع والتنازع بفضل الديانة

الاسلاميه والعمل بأوامرها السماويه ولو أوردنا أن تنقل هنا ما ورد في ضرورة
التحاب بين المسلمين للزمن من صفحات كثيرة جداً فنكتفي بإيراد حديث شريف يدلنا
على نقصان اسلام الذين يدعونه زورا حالة كونهم لا يهتمون إلا بأنفسهم ولا ذهم
صارفين النظر عن كل ما يعود بالنفع على اخوانهم وهو (ومن أصبح لا يهتم بالمسلمين
فليس منهم) * ولنورد هنا بعض حقائق تار يخيمه تدلنا على مبلغ المحبة الاخوية التي
كانت موجودة بين افراد الجمعية الاسلاميه الأولى ليمعظمها ابتداء هذا العصر
وليعلموا انهم بلغوا منها درجة لا تحصل بين اخوين شقيقين في هذا الزمان . قال
حذيفة العدوي انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عمي ومعي شيء من ماء وأنا أقول ان
كان به رمق سقيته ومسحت به وجهه فاذا أنا به فقلت أسقيك فإشارالي أن نعم
فاذا ر جل يقول آفأشار ابن عمي الى أن انطلق به اليه قال لئن لم أجد ماء فإذ هو هشام بن
العاص فقلت أسقيك فسمع به آخر وقال آفأشار هشام انطلق به اليه فاذا هو قد
مات فرجعت الى هشام فاذا هو قد مات فرجعت الى ابن عمي فاذا هو قد مات
. أنظر الى هذه الأرواح الطاهرة التي تشعري ببعضها حتى في ساعة لا تستطيع
الولادة فيها أن تفتكر في فلة كبدها . أنظر الى هذه النفوس الزكية التي تؤثر غيرها
عليها في ساعة هو لها عظيم والمهاجسيم ثم تأمل فيما تستلزمه هذه المحبة من الاوصاف
التي يفخر بها هذا الانسان ويدعي استنادا عليها انه أرفع من الحيوان . هل بعد
هذا التماسك العجيب بين افراد آبائنا الأول نستغرب بسرعة امتلاكهم لهذه
المعمورة مع قلة عددهم وعددهم . هذه المحبة الحققة كانت شأن كل فرد من الافراد
سواء كان أميرا أو فقيرا غنيا أو فقيرا وما كان يصعدا المركز السامي ما هو فيه
من الرئاسة عن اجراء واجبه بدون اخلال بوظيفته . اجتمع مرة قراء البصرة الى ابن
عباس وهو عامل عليها (أي واليها) فقالوا لنا جارسوأم قوام يتبنى كل واحد منا
أن يكون مثله وقد زوج ابنته من ابن أخيه وهو فقير وليس عنده ما يجهز به فقام
عبد الله بن عباس فاخذ بأيديهم وأدخلهم داره وفتح صندوقا فأخرج منه ست بدر

فقال احملوها حملهوا فقال ابن عباس ما أنصفناه أعطيناه ما يشغلنا من قيامه وصيامه
ار جعه وابذل كي نعينه على تجهيزها فليس للدين من القدر ما يشغل مؤمنان عبادة
ربه وما بنان من الكبر ما لا نخدم أولياء الله تعالى ففعل وفعلوا .

بسر يا ن هذه المحبة العجيبة في الأمة الاسلاميه الأولى تأيدتها ثم المساواة والحرية
والعدالة فيها تأييد لا يبلغ شأوه ولا يتحصل بغير الاسلام على جزء منه عا ستسكلم
عليه تفصيلا في فرصة أخرى .

هذا وقد أنط الدين الاسلامي بكل فرد من أفراد المسلمين واجب السعي في اعلاء كلمة
الامة وتأييدها مركزها وقرآن أعظم عبادة يحجبها الله تعالى هي السعي و راحة تحقيق
السعادة العمومية قال عليه الصلاة والسلام من حديث (ان صبرا أحدكم ساعته في
بعض مواطن الاسلام خير له من أن يعبد الله وحده أربعين عاما) وقال عليه
الصلاة والسلام (صلاح ذات البين خير من هامة الصلاة والصوم) وقال عليه الصلاة
والسلام (عدل يوم خير من عبادة ستين سنة * من قضى حاجة لأخيه فكأنما
خدم الله عمره * من مشى في حاجة أخيه ساعة من ليل أو نهار قضاها أولم يقضها
كان خيرا له من اعتكاف شهرين * من علم علما فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام
من نار) لاشك أن من يتأمل فيما سردناه هنا من الاحاديث الشريفة يربعينيه
أن مقصد الله جل وعلا من سنن الاديان ليس هو التهاكك في العبادة الجسمية أو التقاني
في الزهادة المضنيه بل قصده تمذيب الجمعيات البشرية وترقيتها الى أوج نهدينيتها
بسيادة النواميس الممدنة على افرادها . ألا ترى أنه يقول ان سماع كلمة حكمة
خير من اعتكاف شهرين وان اصلاح ذات البين خير من هامة الصلاة والصيام ٥
اللهم ارزق المسلمين تبصرا في دينهم وهمة لمحو الخزعبلات من أذهانهم حتى
يستطيعوا أن يروا الاسلام بالعين التي يجب أن يرى بها فان من يفهم ما نقلناه هنا
من الاخبار النبويه يتحقق أن المسلمين الآن يتقاطعونهم وتناذبهم وجهلهم قد نبذوا
دينهم ظهريا واسـتـوجبوا سخط الخالق باتباعهم لاهوائهم . نعم ان هذه

الاحاديث تدلنا أن التقاطع والتباغض ينافي الاسلام بالمرة بل هو مروق منه فإن الله سبحانه وتعالى لم ينزل هذا الدين للأفراد بل أقره لعموم الجمعية فإن أكثر أوامره لا يمكن العمل بها الا بالانضمام والوثام لا بالتقاطع والانقسام قال عليه الصلاة والسلام (الاسلام الى الجماعة أحوج من الجماعة الى الاسلام)

نحن لا نحب أن نختم هذا الفصل قبل أن نرى القارئ اللبيب أحكام الذبابة الاسلامية بالنسبة للارقاء فإن في ذكر هذه المسألة فوائد جلية جدا تجعلنا نذكر الفرق الهائل بين العدالة الالهية والعدالة البشرية فنقول . كما مر أيتها من حقوق المسلم على المسلم ينطبق عاما على الارقاء فهم يحكم الشرع اخوانا واهلهم للحديث الشريف (اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم الخ) وبناء على هذا فليس لأعظم عظيم حق في التقاخر على عبد زنجي مسلم مهما كانت صفته . وعما يجمل الاستشهاد به في هذا الموضوع أن أباذر الغفاري رضي الله عنه كان يناقش عبدا بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم فغضب منه وقال له يا ابن السوداء فما أتم هذه الكلمة حتى التفت اليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال له طف الصاع طف الصاع ليس لابن اليبضاة على ابن السوداء فضل الا بعمل صالح فوضع أبوذر عند ذلك خده على التراب وقال للزنجي قم فطأ على خدي . وكان عبد الرحمن بن عوف إذا مشى لا يفترق عن عبده لتشابه ألبسته وتساكل أزيائهم وعدم تقدمه عليهم وروى أن الامام عليا رضي الله تعالى عنه ذهب مرة الى السوق مع رقيقته فاشترى ثوبين أحدهما أكثر غنما من الآخر فاعطى خادمه الاثمن وأخذ لنفسه الآخر فقال له الرقيق أنت يا مولاي أحق بهذا الثوب فقال له أمير المؤمنين كلا إنك أولى به مني لأنك شاب وأما أنا فقد هرمت . وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول . ان أبا بكر سيدنا واعتق سيدنا (يعني بلالا الزنجي) فانظر بأبيك كيف ساد حب المساواة في أفكار الصحابة وهم ملوك العرب في الجاهلية حتى صار مثل هر لا ينظر الى بلال الزنجي الا من حيث خدائمه لا من حيث لونه ولا أصله . ولما اختصر عمر لم يرد تعيين خلاف له سمع يقول . لو كان سالم مولى أبي حذيفة (أي رقيقته سابقا) حيا ما جعلتها

(أي الخلافة) شورى . فهل سمعت أيها القارئ في تاريخ البشر ان حب المساواة والاخاء والمحبة ساد في أمة من أمة الارض الى هذه الدرجة . ان هذه المساواة لم يعلم بها فيلسوف لآن حتى في آخر القرن التاسع عشر ولا يتصور احد من مفسري هذا القرن أن من الممكن حدوث هذه المساواة ولا ينأكثر الامم مدنية وعدلا . فن يلوئني الآن اذا قلت برفع صوت ان هذه المساواة هي آخر ما يمكن حدوثه بين البشر وأن كل خطوة تخطوها الامم المرتقية في سبيل تعميم هذا المبدأ العظيم ليس هو الا تقر بان هذا الاساس الاسلامي . ومن يكذبني اذا قلت ان هذه المساواة الحققة لم تسطر لآن الا في الكتب الاسلامية . اللهم أهـد المسلمين للتمتع بحمال دينهم وألمهم ذكرى مؤهل مجدهم

هنا يحتمل أن يسألنا سائل فيقول اذا كان الاسلام كما ذكرتم المساواة بين الارقاء والاحرار الى هذه الدرجة واطهر لهم من الشفقة والرحمة ما لم يحصل مثله في تاريخ البشر بأسره حتى قرر قتل الحر بالعبد وعدم قتل العبد بالحر فلماذا لم يقرر ابطال الرق ويحوه . فهل كان ابطال الرق أشد صعوبة من ابطال عبادة الاوثان فتجيب أن الاسلام دين عام لم يأت الا لأجل أن يتبع ويسار بحسب تعاليمه ولا يصح ذلك الا اذا كانت أواخره ونواحيه ملائمة للطبيعة البشرية التي فطر الناس عليها ومناسبة للمواعث والأميال الانسانية التي لا مفر من التأثر بتأثيراتها ومشاكلها للنواميس السائدة على الجمعية الادمية رغم أنفها وعلى غير علم من أفرادها ليرتقى النوع الانساني تدريجاً من حالة البهيمية التي كان فيها الى ذروة المدنية التي سيلاقيها . هذه النواميس أحسن بوجودها فلا سفة العهران مثل (أوجست ليكنث) و (هجل) و (سبنسر) وغيرهم رأوا النوع الانساني متبعاً سلسلة في الترقيات منتظمة الحلقات لا يمكن تخلفه عن أبوجه من الوجوه رغم ان الفتن التي تعتريه والثورات والمظالم التي تنشب فيه بل قالوا ان كل هذه العقبات التي تظهر للنظر البسيط عوائق وحوائل ماهي الا قواصل تسوق الى الامام وتخرج الانسان من الخلط الى النظام . فكل حكمة يقولها الفلاسفة همما ظهرت للسامع المجرد سامية

عالية فلا تنصرون أن يمكن العمل بها في كل طبقات الامم الا اذا لوحظ معها سير
نواميس التدرج البشرى وتطوره وهيئات أن يصل الحكماء الى سير تلك النواميس
بالدقة مهما كانوا ملعين أو منقبين .

ان من يعن نظره في تطورات الانسان وتدرجه في السرى الفكرى والمادى يرى
بطريقة محسوسة أن كل تطور دخل فيه شعب من الشعوب لم يحصل الا في الوقت
الذى صار فيه الجسم العام للهيئة الاجتماعية منتهياً ومستعداً للدخول فيه . ان نواميس
الحرية والمساواة لم تشرق على أفق بعض عمالك أوربا انتمار بقول فيلسوف أوهاها
لنهيضة حكيم . كلا بل تقدم ذلك مناسبات ومقتضيات هيئات جسم الهيئة
الاجتماعية الى قبول شكل آخر غير الشكل التى كانت به . وهذا بحث لو أطلقنا
له هنان القلم لادانا الى تطويل ليس هنا موضعه

بناء على هذه القواعد الاساسية الثابتة جاءت الديانة الاسلاميه مراعية لسير ذلك
النواميس الطبيعية السائدة على الانسان مراعاة تدهش المتبصر وتبته التدبير
فبينما ترى القوانين والقواعد الوضعية التى رقت للمجتمعات حينما من الازمنة السابقة
صار الآن عمالاً لا ينطبق أصلاً على الاحوال الراهنة ترى بعكس ذلك القواعد
الاسلاميه حافظه شبيهاً لم يعترها هرم ولم يعثرها سقم . نراها لم تزل ولن تزال كما
كانت تنطبق على كل جمعية وتلائم كل استعداد وقابليه . ذلك لانها هى نفسها تلك
النواميس المرقية التى ظل يحسها علماء العمران من أول نشأة الانسان لادان . نحن
لا نقدم كل هذه المقدمة لنبرهن للعالم أن الرقى قاعدة من قواعد الاسلام . يجب أن
يوجد لادان ولا يمكن ان يدان نعل عدم ابطال الاسلام له في أول نشأته بالبرهان الحسى
والدليل المشاهد ولا نرى لأجل هذا دليلاً أقوى من نقل قول العلامة لاروس في دائرة
معارفه . قال (أن الحروب افادت النوع البشرى كثير احتى أن أسوأ نتيجة من
نتائجها وهى الاسترقاق لم تخل من فائدة كبرى ومضرية عظيمة . ولا يستغرب
لقارئ هذا الأمر أن ترقى النوع البشرى قد بانى أحياناً من طرق لا يظن بحجته
منها . فبالاسترقاق تحررت المرأة من ذل الأمر الذى كانت فيه عند بعلمها فانها

كانت عنده لا تفرق عن الجمادات والبهائم ولما جاء الرقيق رفعه من كاهلها كثيرا من المصاعب التي كانت منوطة بأدائها وأسماءها نوعا ما في عين الرجل لان دخول الغريب الى العائلة يقضى على افرادها باحترام بعضهم بعضا ماله . كل هذه المزايا أثرت على المرأة تأثيرا حسنا أهلها لأن ترتقي سلما من الهذيب و ترتقي المرأة تحسن شأن النوع البشرى وارتقى تبعاتها الى معارج الفلاح أما الآن فلم يبق ق لزوج لئلا سترفاق فان الاعمال قد خفت وطأتم عن عواهن البشر وجاءت الآلات الميكانيكية فأ راحت الانسان كثيرا عما كان عليه في الأزمنة السابقة) انتهى باختصار .

نقول ولو كانت الديانة الاسلامية أبطلت الاسترقاق من منذ ثلاثة عشر قرنا لكانت خالفت سنة الوجود وجاءت بأمر يؤخر متبعيها عن الرقي والمدنية ولكن حاشاها من معارضته نوابيس الحضارة فأنهم أقربته بعد ان حصرته في دائرة محيطها المحيطة والعدالة وأسبغت على الأسر والمأسور نعمة لا يمكن تفضيل أحدهما على الآخر فيها فلم توجه الا في الحروب الشرهية ضد الأمم الوحشية الغير اسلامية بينما كانت الأمم الأخرى متبعة في الاسترقاق طرقا بربرية بأنفسها الانسان ويستعبد الحيوان . ثم لم يكف الاسلام حصره في هذه الدائرة المحيطة بل جعل للدراق حقوقا ما كان يحكم بها أحرار الأمم الأخرى في أكثر الممالك الحضارة وتهم ذيبا . ولو كانت الأمم البربرية تعلم مقدار عناية المسلمين بأرقائهم وشقة تهم عليهم ومساواتهم اياهم لأنفسهم لقدرة وافلاذات أكبادهم عبيد لهم ولوجوههم قبولهم كإبراء الألب الشفوق ناظر مدرسة حكيمة ليقبل ابنه في سلك تلامذته لكي يراه يوما ما آدميا كاملا . وفي الواقع بينما كان أبا أرقاء المسلمين واخوانهم هائمون في الغياث والقفار كان هؤلاء في الجمعية الاسلامية موضع الاحترام والتبجيل وشاغلون لاسمى المراكز الاجتماعية في الادارة والحربية مثل بلال وسالم وسلمان وغيرهم . اما وحق المساواة والحرية لو علم ملوك السودان ان عمر بن الخطاب الذي كانت تهرع عروش الملوك عند ذكر

اسمه قال جلسائه ان ابا بكر سيدنا وأعتق سيدنا (يعني بلالا) لنزلوا عن هروشههم
وقدموا أنفسهم أرقاء لهذه الجمعية التي تجعل عبدها سادتهم انظر المزياهيم الشخصية
وخصائصهم الذاتية .

قلنا كل هذا ولكن هل الاسلام أقر الاسترقاق على وجه الاطراد ولم يشرب طرف خفي
يقهسه اللبيب انه سيكون يوما مشرا لا خيرا كما هو شأنه الآن نعم أشار الى ذلك بإشارة
صريحة يفهمها كل انسان ولا سيبل لتأويلها فقال عليه الصلاة والسلام (شر
المال في آخر الزمان المالك .)

أنظر به صيرتك الى هذه المجهزات العلمية وريض فذكرك في الديانة الاسلاميه
وكذب ولوبه تلك الطغام الذين أنصقوا بها المشائن الوهميه والمعايير الخرافيه فقالوا
انما نعتبر الرقيق حيوانا ونقتل على الخفاسه وتندب اليها ومفتريات أخرى تليت في
الجماع ونشبع بها كل سامع ولكن لا بد للحقيقة أن تظهر وللباطل أن يدر
وللاسلام أن يعرف ويشهر (ولتعلن نبأه بعد حين)

❖ واجبات المسلمين بالنسبة للذميين أى لاهل الكتاب

الذين هم في ذمة المسلمين ❖

من يتدبر في تاريخ الانسان من مبدئه الى يومنا هذا يتحقق ان محبة بلدينه قد تغلبت
في فؤاده على كل محبة سواها فتراه يخفى نفسه وأهله وماله في سبيل تأييده
ونصره وهو قور العين منشرح الخاطر . هذه المحبة الدينية فهمها أكثر الاقوام
على غير المراد منها وقد فوهم الى الافراط الهائل حتى حبيت اليهم اجتراع كل أنواع
المظالم واقتراف انكاه الجرائم تحت حجة نصر الدين وكبح جماح المحدثين .
حصل كل ذلك لجهل المتدينين لنواميس الحياة البشرية وقوانين الهيئات
الاجتماعيه مما كان له أسوأ أثر في تاريخ أمثله هذه الامم الحقوده .

أما الاسلام وهودين المدنية الحقيقية وملاك السعادة الانسانية فقد اخط لتبعية
 من هذه الحبيشة خطة ليس في مقدور مجموع الغلاسة عموما ان يقرر ولمثلها في
 أذهان أهم ولو بلغوا من السلطان على الافكار بعد غاية . كيف توصل الاسلام
 ياترى الى اقتلاع جذور الاحقاد الدينية من عقول متبعيه بدون أن يقال شيئا من
 من محبة في أنفسهم مع علمنا بأن أكثر الامم محبة لدينها واحتفاظا بهي أشدها
 حقد على مخالفيها . انه توصل لذلك بطريقة لم نسمع بها عن قادة الدين ولم
 يقررهما العالم العلمى الامن منذ امد قريب أى بعد ان وقف علماء الانسان والعمران
 على أسرار النفس وتأثير المدنية عليها . فبمضا كانت رؤسها أكثر الأديان الأخرى
 يقولون لتبعيةهم . ان الله قد أمر أن تكون العائلة البشرية كلها أمة واحدة
 متحدة الدين والاخلاق والعادات فاعملوا على تأييد هذا المبدأ ما استطعتم لذلك
 سبيلا فان اختلاف النوع البشرى يخطط الله لعرضته لارادته الازلية كان الله
 تعالى يوحى الى نبيه لباب الحكمة قائلا وللؤمنين (ولو شاء ربك لجلل الناس
 أمة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم * ولو شاء ربك
 لآمن من فى الارض كلهم جميعا أفأنت تمكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)
 (انك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء)

وبينما كان رؤسها أكثر الأديان يأمرؤن متبعيهما باستعمال أشد الطرق الاكراهية
 فظاعبة لجل الناس على الدخول فى ملتهم ولو أدى ذلك الى قتل الابرياء وتبسيم الابناء
 وتخريب العمران وزعزعة أركان السلام كان الله تعالى ينزل على رسوله من
 سماه الرحمة أى الحكمة قائلا وللؤمنين (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن
 ومن شاء فليكفر * لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي) ولوع الى
 سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ان ربك هو أعلم عن
 ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين)

* كل هذه الآيات البيّنات غرس فى أفئدة المسلمين قاعدتين عظيمتين محتمتا من

نفوسهم كل حقد ديني ولاشت كل تعصب مذموم . القاعدة الاولى هي فهمهم
من منطوق هذه الآيات أن الله سبحانه وتعالى قضى في سابق علمه ضرورة افتراق
العالم البشري الى جمعيات متخالفة المبادئ والغايات متباينة المشارب
والاقتادات فيكون الساعى ضد هذا القضاء الالهى بغير مرسوم له عاصيا ربه
مستحقا لخطه وغضبه . القاعدة الثانية هي استنتاجهم من هذه الآيات نفسها أن
تنسكب الناس عن دين الله سببه تفاوت مداركهم في الفهم واختلافهم في درجات
العقل وأن لا سبيل الى انتشار هذا الدين الا بين من أسعدهم الجدد بادرارك سره
وفهم المراد منه . ولذلك أمرهم أن يسعوا الى نشر الحقيقة الاسلاميه من بابها
وهو الدعوة اليها بالحكمة والموعظة الحسنة وبالجدل الذى لا تكون عاقبته
وخيمة على أحد الجانبين . هاتان النظريتان اللتان يفهمهما المسلمون من كتابهم
المبين تجعلهم لا ينظرون في اختلاف الأديان والمتدينين الاشياء مرادة الله تعالى
سابق بمقتضاه واستلزمته احكامته ليمت الابداع الذى اراده وقدره لهذا النوع
البشرى ويزيدهم رسوخا في عقيدتهم هذه ما اثبتته علماء العمران حديثا من ان
اختلاف النوع البشرى ضرورى لانغناء المدينة واستمرارها ولازم لا يرادها هذا النوع
موارد سعاده المرجوة . بعد ان يقر الاسلام في اذهاننا هذه المبادئ الحكمية
يا امرنا بالتخلق باخلاق الله في معاملته اللاوين الكشيع عن شريعتة فانه سبحانه
وتعالى قادر على ان يعاملهم بما لا يطيقونه ولكنه لا يفعل ذلك بل يعاملهم
في الحياة الدنيا اسوة غيرهم وبعاميرهم عن سواهم اذا كانوا كثر أهلية منهم لنوال
السعادة المادية . (ومن يردحون الدنيا نوثه منها) . نعم يا امرنا الاسلام ان
نسدل ستارا كثيفا على معتقدات مخالفة ما في الدين ويحتملنا على معاملتهم بما يوافق
الرفق ومكارم الاخلاق قال تعالى (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوك في الدين ولم
يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين) .
وينهاكم عن اذا هم وما كرتهم ونصب الخنازل اشارتهم قال عليه الصلاة والسلام

(من آذى ذمياً فإنا خصمه ومن كنت خصمه فقد خصمته يوم القيامة • من قذف
ذمياً حوله يوم القيامة بسيطا من نار) •

هذا ودیننا الکریم یلزمنا بمساواتهم بأنفسنا أمام القانون ویزجرنا أشد الزجر عن
اهتضام حقه وقهرهم وهو الأمر الذي لم یسبق له مثیل فی تاریخ أى أمة من أمة الأرض •
أرى أى أمة تأیدت فیها أقواء العدالة ورسخت فیها أصولها لدرجة تقتل أحد
أعضائها عقوبة له على قتله أحد الأجانب عن دینها الرسمى حالة کونها فی اوج
عظمتها وقادرة على أن تفعل ما أرادت من أنواع المظالم فی جانبهم • جاء فی التاریخ
الاسلامی ان یهودیا اشتكى علی اللامام عمر رضی الله عنه ما وعلی کلا یخفی ابن عم
النبی وزوج ابنته وأحد المرشھین لركز الخلافة • فقال له عمر قم یا أبا الحسن فاجلس
أمام خصمك ففعل ولكن مع تأثر لاح علی وجهه فلما انتهت القضية سألہ عمر قائلاً
أكرهت یا علی أن تجلس أمام خصمك قال لا واسكنی تكذرت لكونك لم تلاحظ
المساواة بیننا بقولك لی یا أبا الحسن (لأن السكينة تشير إلى تعظيم) • قل لی
بعیشك هل ورد فی تاریخ بنی آدم مثل هذه المساواة أمام القانون بین أحد عظماء
أمة عظيمة یزاسمها عروش الملوك والقباصرة و بین رجل من السوق غریب عن
دیانتها • هذا هو تاریخ الامم جمعاء یخبرنا ان المساواة لهذا الحد لم تقر حتی بین
الطبقات المختلفة فی الأمة الواحدة الامن منذ زمن قریب جداً عیاضاً دوینا إلى
الجزم بأن هذه العدالة الحققة لم یعمل بها مطلقاً فی الامة الاسلامیة •

كانت العدالة فی الامم المتحدنة القدیمة اسمها بالاجسم وكانت العقوبات متنوع
وتختلف باختلاف الرتب والالقب اما الشعب ذاته فمکان تحت رحمة اهواء سادته
الاعلیین وقادته الغالیین [اما المساواة التي یتبیح بها فلاسفة هذا العصر فهي
بنت الثورة الفرنساویة الماثلة التي بیعت فیها المهرج بالجمان وصبغت فیها الأرض
بالارجوان قال المسیبولاروس فی دائرة معارفه (ان العقوبات فی روما خاصة
دولة الرومان) كانت تختلف دائماً فی الجنایات المتشابهة علی حسب اختلاف حالة

المجرمين وحيثبتهم) ثم ذكر تفصيل ذلك الجور وانتقل من قانون الرومان الى قانون
الفرنساويين قبل الثورة الفرنسية والصق به مثل هذا الخلط في قواعد العدالة
ثم قال (ان ثورة سنة ١٧٨٩ قذفت كل هذه الامتيازات بنفس الحركة التي
صحت الالقاب المختلفة التي كانت تابعة لاصالة الشخص اولوالوراثه .)

فقل لي بعينك كيف لا يستخز المسلمون بدينهم اذا تهاقوا أن هذه المساواة التي يقول
عنها الفلاسفة انها سبب كل سعادة اجتماعية لم تقر لأول مرة الا في الجمعية
الاسلامية وانهم لم يقرروا فقط بالنسبة للمسلمين فيها بل بين أعظم عظيم فيهم
وبين أحقر حقير من غير ملتهم . اللهم اننا نعتقد ان هذه العدالة ليست من موضوعات
البشر ولم تكن في مكننتهم مطلقا قبل أربعة عشر قرنا بل هي عدالتك التي غمرت
كل شيء وسادت كل شيء فنعنا اللهم بالتدبر في معجزات دينك انك على كل شيء
قدير .

الاسلام يأمرنا بمعاملة الاجانب من ديننا ومحاسنتهم ولكن لا من باب المواربة
والداهنة خوفا منهم أو طمعا فيهم . كلا . بل عن صفاء نية وسلامة طوية حتى
انه ينهانا عن اغتيال أحدهم وذكركه بما يكره كما ينهانا عن اغتيال أحدها بسواه
ولم يحل لنا سبوجه من الوجوه نصب الأوهاق لهم لصادرة أشياءهم تحت ستار
القانون المموه أو العدالة الوهمية كفعله ويفعله كثير من الامم بالنسبة للخالفين
لمعتقداتها .

وقد ترك لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أعظم اسوة يجب أن تأتسى بها
في معاملة الاجانب عن ديننا ومخالفتي معتقداتنا فانه عليه أنصرف التحية والسلام
كان يحضر ولا تهمهم ويغشى مجالسهم ويشيع جنازتهم ويعزيهم على مصائبهم
ويعاملهم بكل أنواع المعاملات الاجتماعية التي لا بد منها في كل جمعية محكومة
بقانون واحد وشاغلة لميز مشترك . روث السنة الكريمة ان سيد الوجود صلى
الله عليه وسلم كان يقتصر من أهل الكتاب نقودا ويرهنهم أمتعة الشريعة لا عجرا

من أصحابه عن إقراره فإنه كان منهم المثلون وذو الاملأك الشاسعة وكلهم مستعد
لأن يضحى نفسه ونفسه في سبيل مرضاة نبيه ولكنه صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك
تعليلاً للامة وارشاداً لها ان الاسلام أكبر وأجل من أن يأمر ذويه بقطع العلائق
مع من يعيشون معهم في مكان واحد . بحجة أنهم مغايرون لهم في المعتقد وفي ذلك
دلالة نامقة على أن المسلم يستطيع أن يعيش بمفرده في بلاد أجنبية عن دينه ولا
يضره كون أهلها من غير ملته بل ويسمح له أن يتزوج منهم .

ليس في ما بين أيدينا من أسفار المدينة ما يرينا ان هناك فلسفة تهدي الى احترام
النوع البشري بمنزلة ما يهدي اليه الاسلام ويأمر به . تصفع تواريج الامم سابقها
ولا حقها تر بعينيك من آثار قسوة الانسان على الانسان ما يجعلك على اليأس من
سيادة ناموس الاحترام النوعي بين افراد البشر ويجعلك تثق بقول المتنبي
والظلم من شيم النفوس فالجهد * ذاعقة فلعله لا يظلم

نعم يرينا التاريخ من آثار ظلم الانسان للانسان مائة شعرة الابدان ويخجل
منه الحيوان وان كل هذه الفظائع كانت تحصل انتصاراً للاديان . نحن
لا نقصّر ان ديننا هو اياها وذويه بالفتك عن مخالفتهم واستئصال شافقتهم بأفطع
الطرق ولكنه ان نسب ذلك كله الى سوء فهم متبعها وادخالهم الغش والتدليس فيها
ما أربهم التخصيه وأميلهم اليهميه . قد بلغت تلك الوحشية في الاكراه
لدرجة كانوا يرمون بني نوعهم طعمة للنار المتأججة أو فريسة للحيوانات الكاسرة
أو يرطون رجليه في ذيلي حصانين شديدين ويطلقونهما في اتجاهين متخالفين
أو يصبون على جلودهم القطران والقار الخاليين في النار أو يعاقبونهم على
نيران هادئة أياماً عديدة ولا يهتمون بأنينهم ولا زفيرهم فتساقط لحومهم
وتدوب شهومهم . كل ذلك كان يحصل على مرأى ومسمع من الناس فلا يجدون
من أنفسهم فؤاد يشفق أو احساساً يتأثر . بل كانوا يرمون عليهم متفرجين
متشفين قل يا بئسك أين هذه الصدور المتأججة بالاحقاد المتلوبة بالاضغان التي

تعمل ذويها على استئصال الامم ومحوها المجرود رفضها ترك دينها من تلك الصدور
الاسلامية الرحبة الملوثة حكمة ورحمة المفعمة مروة ووهمة التي كانت تسمع
لنواقيس الكائنات أن تدق بازاء ما ذن المساجد بدون أن تحرك منهم ساكنا
أو تسبب غيظا بينما كانت مقابلة مقادير العالم بامر بين أيدي المسلمين بالانازع
ولا شريك فانهم كانوا يستطيعون ولا شك أن يجبروا على حرية أديان مخالفيهم
مثل ما فعلت الرومان وغلات فيه .

كان الجيش الاسلامي يدخل مكللا بالفخار في احشاه الممالك المخالفة له اعتقادا
فيجعل أكبرهم تطمين الناس على دينهم وتهدى روعهم على حفظ معابدهم متعهدا
لهم بحمايتهم والافاع عن ذمارهم ويطاق لهم تمام الحرية في اجراء كل طقوسهم
الدينية وعواظهم المليية . كل ذلك عملا بتعاليم الاسلام وجرى على سنة رسول الله صلى
الله عليه وسلم

هل بعد هذا يستطيع مكابر أن ينسكرك على المسلمين احترامهم للنوع البشري أكثر من
كل أمة سواهم أو يجحد أن دينهم أعلى وأسمى من أن ينفى على اختلاف المعتقدات
الاباحية المطلقة في سبيل القتلى والقسوة . الاسلام لا يحلل الجور لتبعية حتى مع
ألد أعدائهم في ساحة الوغى وميدان الهيجاء قال تعالى (وقاتلوا في سبيل الله
الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين)

الاسلام لا يأمر الرجل بقطيعة أهله لمخالفة دينه لا ينهم بل يوجب عليه معاشرتهم
بالمعروف وعمل كل الطرق في أداء واجباته نحوهم قال تعالى (ووصينا الانسان
بوالديه حملة امه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك الى المصير
وان جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا
معروفا واتبع سبيلا من أناب الى نعم الى مرجعكم فأنتبشكم بما كنتم تعملون)

روى عن أمها بنت أبي بكر رضى الله عنهم ما قالت أتتني أمي راغبة في عهد النبي
صلى الله عليه وسلم فسألتها أصلها قال نعم قال ابن عتيبة فأرسل الله تعالى (لا ينهاكم

الله من الذين لم يقاتلوا (في الدين الآية) وأرسل عمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حلة إلى أخيه هذينة وهو مشرك .

الاسلام دين عام لم يجعله الله خاتمة للاديان وهو مريد به التفريق بين الأهل والعشيرة ولا بين أبناء الوطن الواحد ولا بين النوع الانساني بأكمله بل ان الرجل يستطيع أن يكون مسلما وهو في عائلة كل أفرادها يخالفوه في المعتقد والمذهب ولا تقبل تلك المخالفة على عمل شيء ضدهم على الإطلاق بل يلزمه الدين بعمل واجبا به بالنسبة لهم والمدافعة عن حقوقهم ماداموا مراعين نفعهم شرائط المحبة وصدق النية

الاسلام لا يكلفنا بجميل الخصال ومحاسن الخلال لنفعلها فقط فيما بيننا بل يكلفنا بما انقوم به مع العالم أجمع طارحين على اختلاف الديانات غطاء كثيفا وحجابا غليظا قال عليه الصلاة والسلام (خاب عبد وخسر لم يجعل الله في قلبه رحمة للبشر) وقال (نصدقوا على أهل الأديان كلها) بهذه الأوامر الإلهية عمل المسلمون ويعملون ولواتهمهم بضد ذلك المضلون . كان عمر جالسا بين أصحابه فربه رجل من أهل الذمة يتسول فنظر إلى محالسيه وقال لهم انالم ننصف الرجل أيصح أن نأخذ منه الجزية وهو شاب وتر كذا يتسول وهو شيخ . كلا . وأمر له براتب يصرف له من بيت مال المسلمين . فتدبر رحمه الله في هذه النفوس الكريمة والذرائع الرحمة وأعجب كيف تمكن الاسلام بنور الله ان يؤثر على أئمة أولئك العرب الذين كان يضرب المثل بجاهليتهم حتى جعلهم - مغيرة في وجهه المكارم وآية في عدم الحق الديني في زمان كانت فيه هذه الأميال الشريفة مقبودة من بين النوع البشري بأسره امان من جهة حسن معاشرته المسلمين لمن يعيشون بين ظهرانيهم من أصحاب الديانات الأخرى فمالهم يردونه في تاريخ البشرية قاطبة . نعم بلغت منهم حسن المعاشره محال فيهم في المعتقد مبلغا لانراهم حصل الآن ولا بين أخوين شقيقتين ربياني عائلة واحدة وتفرعا من نبتة مشتركة . قال مجاهد كنت عند عبد الله

ابن عمرو - لام له يسلم شاة فقال يا غلام اذا سلحت فابدأ بجارنا اليهودى حتى
قال ذلك مرارا فقال له كم تقول هـ - ذا فقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
لم يرل يوصينا بالجار حتى خشينا انه سيورثه فارن رحمك الله بين هذه المعاملة
الدهشة وبين ما سمعته في البلاد المتقدمة من الجمعيات السرية والجهريه
التي تتألف يوميا ولا هم لها الاضطهاد اليهود واذلالهم . هل بعد ما بيناه
في هذا الفصل يستطيع كلاب الفتنة وذئابها أن يسموا المسلمين بتهمة الحق
الدينى (التعصب) واضمار الشر لكل من ليس من ملتهم . اناسمع كل يوم
في بلاد المدينه بأمر نازلة من آثار الحق الدينى ما يجعلنا نخجل من سماعه اهل
سمعت يوما انه قامت في بلاد اسلامية جمعية جعلت همها معا كسة طائفة من الطوائف
التي تدبر بغير الاسلام . اللهم كلا .

نحن قبل أن نختم هذا الفصل نود أن نثبت للقارى أن الحق الدينى الذى برهننا على
تجريد الاسلام والمساكين منه من منذ ثلاثة عشر قرنا الى الآن كان دين سائر
الأمم رداها الذى أعيا أطباها وأنه لم يتوصل الى تخفيفه ولا أقول ملاشاته
الامن منذ قرن تقريبا ولا ترى لذلك سبيلا أحسن من نقل ما قاله الفيلسوف
الطائر الصييت جول سيمون في كتابه حرية الاعتقاد (قال ان حرية الأديان
ليست ببعيدة العهد . فان تاريخ العالم كله هو عبارة عن تاريخ الحق الدينى
(التعصب) . هـ - هذا الحق الدينى الذى هو أقدم من الحرية يتصاعب الى أبعد
عصر في التاريخ) ثم عدد آثار التعصب المذموم في العالم كله من القرون الأولى الى
الاعصار الوسطى ثم قال (وأخيرا توصلت الروح الفلسفية الى تقرير حرية
الأديان في ١٧٨٩ سنة أغسطس سنة ١٧٩١ وهو تاريخ تحرير اليهود من المظالم . ومع هـ - ذا كله فان
الثورة الفرنسية على ما كانت عليه من خلوها من حسن الإدارة في الاعمال لم

تتمكن من تأسيس الحرية الدينية) أما يحق لنا نحن بعد هذا كله ان نرفع صوتنا
قائلين ليحيى الاسلام دين المدينة والسلام

واجبات المسلمين بالنسبة لمعاهدتهم

ان حفظ العهد واجب من أكبر الواجبات الاسلامية فلا يبيح الاسلام نقضه
لاى سبب من الأسباب الا اذا كان المعاهدون هم البادئون بنقضه كما انه لا فرق
لدينا فى حفظ العهود بين أن يكون معاهدونا هم من أهل الكتاب أو من المشركين قال
الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) وقال الله تعالى بعد تعدده
لهغات المؤمنين (والذين هم لأماناتهم وهدى راعون) هـ ذا ومن يتصفح تاريخ
الاسلام من أول نشأته لا لا يتحقق ان المسلمين رجال يضر بهم المثل فى حفظ
العهد وصدق النية فى القصد وفى تاريخ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمثلة غليقة
أن توضح نصب أعين قادة الأمم فى طهارة الذمم وعلو الهمم . ومن يتصفح
القرآن الكريم يرفيه من الأوامر لحفظ العهود والنهى عن نقضه ما يجعله يتأكد أن
الشريعة المحمدية لا تضارعه شريعة أخرى من حيثية مطابقة لقواعد العدل
وشدة يقظتها فى عدم تعدى حدودها ألا ترى أن الدين فى اننا نتحريضه لعصايته
الضعيفة بالثبات أمام عدوهم الشديد البطش لم يغفل عن تذكير ابنائه حتى فى
هذه الساعات الشديدة المخاوف بمعاهدتهم لكيلا يلحقوا بهم أقل أذى قال الله تعالى
(وبشر الذين كفروا بعباد أبائهم الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقو صومكم شيئا
ولم ينظأروا عليكم أحدا فاتوا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين)

أمام معاملته المسلمين لأفراد الأمم المعاهدة لهم فلا تفرق عن معاملتهم لأهل الكتاب
الذين تقدم الكلام عليهم فى الفصل السابق وقد أوصى عليهم نبينا صلى الله عليه
وسلم فقال أمرنى ربى ان لا أظلم معاهدا ولا غيره) وقال عليه الصلاة والسلام

(من قتل ما هذا لم يرح راحته الجنة من أمن رجلا على دمه فقط له فانا يرى من
القاتل ولو كان المقتول كافرا) هذا ومن يتصفح تاريخ الامم المتدنه في القرون
السابقة يتشعر رحمه من سلوكهم مع الامم الضعيفه فانهم ما كانوا يعرفون للحق قانونا
غير القوة ولا للفضيلة ناموسا غير القوة فن كان ينكده الحظ بان يصير ضعيفا كان
يقع تحت ذل الاسر والعبودية و يقيد بالسلاسل والاغلال ليكون آله لمواليه في
الحرارة او الصناعات او غير ذلك

واجبات المسلمين بالنسبة لمحاربهم

من المجمع عليه تاريخيا أن النبي صلى الله عليه وسلم قام بأمر الدعوة الاسلاميه
بفردته في مكة المكرمة فتمهه أفراد قليلون منهم نساء واطفال وشيوخ فاضطهدوه
ومن أسلم معه اضطهدا شديدا وعذبوا عذابا أليما لا يمكن ان يحتمله الا من يرى
الهلاك أسرع عليه من الارتداد عن حقيقته مثل ما حصل لخبيب رضى الله عنه حين
أمر وعذب بالنار والماء عرضه للقتل استأذن في صلاة ركعتين فصلاهما ثم قال لولا
أن تظنوا أن ما بي جزع لا ظلمتاهما اللهم أحصهم عددا واقتلهم بددا ولا تبق منهم
أحد انهم انبرى مشددا

ولست أبالي حين أقتل مسلما * على أي جنب كان لله مصرعي

وذلك في ذات الاله وان يشأ * يبارك على أوصال شلو عزع

هذا ما حصل لاحدهم وما كان يحصل لغيره أشد وافظ مما يطالب تفصيله من كتب
التاريخ فاستمرت هذه المصائب على هؤلاء المسلمين مدة ثلاث عشرة سنة ثم أذن لهم
بالهجرة الى الحبشة أولا ثم الى المدينة ثانيا فتموا هناك واشتد ساعدهم فرمتهم العرب
كلهم عن قوس فظلوا في المدينة في أشد الخوف والوجل حتى كانوا يقولون (ترى

فعبس حتى نبيت مطمئنين لانخاف الامن الله عز وجل) فانزل الله تعالى عليهم -
هذه الآية نظمينا لهم وتسكين الروعهم (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات
ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم
وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا) ثم لما تجمرت عليهم
القبائل وأتتهم بمحمسة حاقدة بقصد ابادتهم واصطلامهم أذن الله لهم أن يدافعوا عن
أنفسهم ويثبتوا واعدا اياهم بالنصر والتحكين والقض المبين فقال تعالى
(أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير . الذين أخر جوامن
ديارهم بغير حق الآن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت
صوامع ييسع وصلوات ومسا جديذ كرفها اسم الله كثير اولي نصرن الله من ينصره
ان الله لقوى عزيز) فكان سيد الوجود عليه الصلوة والسلام ومن معه من النفر
القليل يلاقون بصدورهم ثلاث الجيوش الهائلة والكثائب المتركة المتركة كبه وهم
مطمئنون متيقنون ان الله تعالى لا بد ان يحقق لهم وعده حيث قال (وعد الله الذين
آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم
* ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى آتاهم نصرنا ولا
مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين * وكان حقا علينا نصر المؤمنين
* كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ان الله قوى عزيز) فاستعرت نيران الحروب بين طائفة
المؤمنين القليلة العدد والعدد وبين سائر قبائل العرب مدة مديدة امتحن الله
في اثنائها قلوب عباده واختبر صبرهم وطاعتهم لأوامره وأمرهم على كل ما يمكن
تصوره من المصائب حتى انتقت قلوبهم من كل شائبة وصار ايمانهم أنقى من
النقاء وأصفى من الصفاء ثم مكن الله لهم في الارض وجعل كلمتهم العليا وكلمة
أعدائهم السفلى فصاروا قادرين على ابادة أعداءهم عن بكرة أبيهم ولكن
كيف يتصور أن يحصل ذلك من دين الاسلام دين المدنية والسلام . حاشا . بل
كان الله تعالى يأمرهم بعبادتهم والعدل معهم قال جل جلاله (لا ينهاكم الله عن

الذين لم يقاتلوا في الدين ولم يخرجوكم من ديارهم أن تبروهم - وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين)

ولما مكّن الله للمؤمنين ووطد أمرهم وأراد أن يظفرهم - على الذين ظلموهم - في أول نضاتهم وأذاقوهم أنواع الآلام أمرهم أن لا يتبعوا دواعي الانتقام والتشفي لكيلا يخرجوا عن حدود العدل والحكمة وأراهم أن ذلك يهدد ديانا وظلما فقال تعالى ولا يجرمكم شنآن قوم أن تصدّوا عن المسجد الحرام إن تعدّوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم - وللمعدّون واتقوا الله إن الله شديد العقاب)

لم تأت هذه الاوامر بالفسجة للتهورين فقط بل يجب مراعاة الاعتدال والشرف والرحمة حتى في أثناء اشتعال نيران القتال قلل تعالى (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعدّوا ان الله لا يحب المعتدين) ومن الاعتداء عنه للمسلمين سب اعدائهم ولعنهم . لما قتل المشركون هم النبي صلى الله عليه وسلم حمزة ومحووا به وأخرجوا كبده بكي عليه بكاء شديدا وحن حزنا لا يبريد عليه ودعا عليهم فأنزل الله تعالى (ليس للذين آمنوا من الأمر شيء) أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون) فكف عن الداء عليهم وقال لئن ظفرت بهم لأمثلن باربعين منهم فأنزل الله تعالى (وان عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به واثن صبرتم له وخبر للصابرين) فقال عليه الصلاة والسلام أصبر وأحسب .

أما من جهة أسراء الحروب فإن النبي صلى الله عليه وسلم أمر المسلمين بمراعاتهم وإكرامهم وعدم أساءتهم فقال (استوصوا بالأسارى خيرا) فصار أصحابه انتماء لهذا الحديث يكرمون أسراهم لدرجة أنهم كانوا يعطونهم خبزهم لياكلوه ويكتفونهم بالتمر .

فتدبر رحمك الله ما قدمناه لك في هذا الفصل ترا التفاضل الواضح بين هذه العدالة الالهية وبين ما تقرأه من سيرة الرومان وغيرهم من الأمم التي كانت جاعلة نفسها

طامعونا مجتاهدا للنوع البشرى فهامت فيه قتلا وسفكا وتسخير واستعبادا . واعلم
 أن كل ما تراهم من آثار العدالة في حروب هذا العصر ليس هو الا تقربا لهذه العدالة
 الاسلاميه التي هي نموذج لمنتهى ما يمكن حصوله في النوع البشرى . فلندع
 الجمعيات الساعية لتأييد السلم في العالم وإبطال الحرب تعمل عملها العظيم وتجد
 فيه فان الاسلام لا يهزأ بعملها هذا بل ينشطها فيه حتى اذا تم لها ما تؤمله
 بمساعدة الملوك والقيصرة ودعمته على دعام الاخلاص وصدق الطويه مد
 كل مسلم اليها يد تاليا قوله تعالى (وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه
 هو السميع العليم)

نظرة على الاسلام والمسلمين

قد بسطنا في فصولنا المتقدمة كل أصول الدين التي انبنى عليها كل ما تراهم
 الترقى في العالم المدن وأقننا الأدلة الحسية على انها بعض قواعد الاسلام حتى يتخيل
 للرائي انها مستمدة منه وما خوزة عنه . وبرهنا ضمن ذلك ان هذه الاسس الاسلاميه
 لا يتحمل أن يعترضها التبديل أو يعدو عليها التحويل لانها ملائمة لسنن الوجود
 ومطابقة لنواميس الحياة البشرية المثبتة بالحس مطابقة لا يمكن نكرانها بوجه من
 الوجوه وقلنا ان كل ترق يحصل في العالم وكل خطوة تخطوها العقول في
 سبيل الكمال ليس هو الا تقريبا الى الاسلام وانه سينتهى الأمر يوما ما بإجماع
 كافة عقلاء البشر على اعتبار الاسلام ناموسا عاما للسعادتين وضامنا لراحة
 الحياتين .

فهم الاسلام هو الدين العام الباقي بقاء الانام والقانون الذي تلمسته الفلاسفة
 الاعلام منذ أوف من الاعوام . اهـ تم عقلاء الامم من القدم بالبحث عن دين
 حق عام يقوم بحاجة الجنان المادى والنفس المعنويه ويوفق بين مطالبهما

على مقتضى ناموس عادل وقسطاس حكيم ويوجد النسبة الحققة بين أُمَيَّا لهما
 بطريقة تمنع تسلط أحدهما على الآخر . اهتقوا بهذا الأمر وتحسسوه من كل
 مظانه لعلهم بأن الانسان المركب من نفس وجسم اذ الميراث عام الاعتدال في
 مطالب هذين الجوهرين وقع في الافراط في مطالب احدهما ومتى حصل له ذلك أخل
 بوظيفته الحياتية ودفع نفسه في تيار شديد القوى لا يسرع به الا لصدمة صدمة
 تذهله عن نفسه فيصبح جائحة على بني نوعه أو عضوا مشلولا فيهم . رأى هؤلاء
 العقلاء وابتعدوا عن الحس دليل أسـطع ولا بعد حوادث التاريخ برهان أقطع ان
 كل المذاهب التي لم تزن مطالب الجسم والنفس بقسطاس مستقيم ولم تعدد
 لكلا هذين الجوهرين ناموسهما القويم تقسم الامم التي تسود عليها الى قسمين
 عظيمين تدوم بينهما الفتنة المرهقة والقتال المزعجة أما دامت طيبته حتى يسود
 أحدا أولئك القسمين على الآخر ومتى امتلاك حريته المطلقة ولم يجد امامه مقارنا
 يخفف من سيره نظري واستهدف لكل ما يستلزمه الافراط في أحد نوعي مطالب
 الانسان ولم يلبث أن تصبح به الطبيعة البشرية ضحية تردده . دبرا على عقبه
 فيصبح كأن لم يغن بالأمس . ومن يتصفح تاريخ الامم يرى بعينه هذه الحقائق
 ساطعة واضحة لا تعود الى بحث طويل .

أما نحن فأول من يوافق هؤلاء الحكماء على أفكارهم من ضرورة تلس مذهب
 عام يوفق بين مطالب الجسم والنفس توفيقا عادلا ويربط صلاح أحدهما بصلاح
 الآخر كما هو شأنهم بالطبيعة . وقد انتهنا في فصولنا المتقدمة أن النفس عرضة
 للأمراض المختلفة وللشفاء منها كل هي حالة الجسم سواء بسواء . ولما كان
 الرجل لا يستطيع أن يحمي جسمه من عوارض الطبيعة المهلكة الا بتعلمه
 لقانون الصحة الجسمية فكذلك يجب أن يكون هو ذاته على علم بقانون يسمى بقانون
 الصحة النفسية ليستطيع أن يمنع نفسه من غوائل الأمراض المعنوية القتاله
 ولما كان الجوهران المركبان للانسان موضوعين بطريقة بهائية أثر أحدهما بمرض

الآخر وجب أن يكون ذلك القانونان اللذان يبحثان عن صحتها متناسلين متلائين
 لكيلا يكون في السير على أحدهما ضرار بالآخر . هذه الحقيقة أصبحت في
 هذا القرن خصوصا من البدائه التي لا يترى فيها لأن حالة الوجود كله شاهدة
 بصحتها وهذه الحقيقة نفسها هي التي بعثت خاصة علماء أوروبا الى تأليف ديانة
 سموها الديانة الطبيعية أسسوا بنيانها على دعائم البدائه العلمية والمخاتق
 الفاسقية ونحن نسبحس أن تأتي في هذه العجالة على أهم قواعد مترجمة من
 كتاب (الابحاث الاخلاقية على الزمان الحاضر) تأليف العلامة كارو قال
 (قواعد الديانة الطبيعية هي الاعتقاد بوجود الله مختار خلق الكائنات واعتنى بها
 وهو تميز عن العوالم المكونية وعن النوع الانساني والاعتقاد بوجود روح في
 جسم الانسان متصفاً بالذكاء والحرية وعجوبة في هذا الجسم المادى أمد التبدل
 فيه وهذه الروح يمكنها إرادتها أن تطهر هذا الجسم وتنقيه اذا عرجت به فصول السماء
 كما يمكنها أن تسفله باستئناسها بالمادة الصماء . والاعتقاد المطلق برفعة
 العقل على الاحساس . ووضع الحرية الاخلاقية التي هي ينبوع وأصل
 كل الحريات الاخرى تحت سيطرة الاعتدال السكى . واعطاء الاخلاق
 الفاضلة اهمها الحقيقي وهو الامكان والابتلاء وتحديد غرضها الحقيقي وهو
 التخلص التدريجى للنفس من علائق الجسم والتهوؤا ساعة الموت بالزهادة . وأخيرا
 الاعتراف بقانون الترقى ولكن بدون فصل رقى النوع الانساني في مدارج
 السعادة المادية من العواطف الفاضلة التي هي وحدها تبرر تلك السعادة
 وقهاها .)

لاشك ان كل من يعن نظره فيما قدمنا من نصوص الديانة الاسلامية وفي
 قواعد هذه الديانة الطبيعية يربعينه ان الاسلام هو تلك الامنية التي
 تحسبها الفلسفة وتلصوها في سائر ابحاثهم العلمية من قديم الزمان الى الآن
 ثم يندش ويتعجب من الخطوات التي يخطوها النوع البشرى بين كل

هذه الملاقاة الاجتماعية في سبيل الرقي والتدريج متقربا كل يوم من قواعد الدين الاسلامي على غير علم من أفرادها ويتأكد ان الاسلام هو الغاية القصوى التي وضعها الخالق جل شأنه أمام هذا النوع ووضع فهم من القابلية والاستعداد لبإلوفها ما تشاهد آثاره وأفاعيله في تاريخ الانسان عاها مصداق له ولله تعالى (سنريم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق)

من هنا أيضا يدرك المعنى النظمي من ذلك التطور المدهش الذي حصل في الأمة العربية لجعلها خير أمة أخرجت للناس بعد ان كانت من الوحشية يمكن ليس دونها مكان . فلنبحث في حالة المسلمين الآن وفيما هم واقعون فيه من العمل الاجتماعية التي انتهكت قواهم من منذ قرون عديدة لنعلم أين الداء وما هو الدواء . نعم بحث هذه المسألة قبلنا كتاب فطاحل ولكن بغاية الاسف رأينا أكثرهم أغضى كل الاغصاء عن ذات العلة واخذ يجهد نفسه في مداواة الاعراض المرضية وهذا جهد لا يبالغ صاحبه بأهنيته مادام سبب المرض لم يزل ينتج أفاعيله على حسب قانونه الخاص به ويسير سيره الطبيعي في جسم الهيئة الاجتماعية الاسلامية . أما نحن فلانريد أن نصل إلى هذا المسلك الذي لم ينتج فائدة مما بل نريد أن نثقب أغلفة أدواء الشرق المترابكة على بعضها حتى نصل بعون الله إلى معرفة ذات العلة . ومتى عرفناها ساهل علمنا ولا شك معرفة دوائها وكيفية تطبيقه فنقول . لا يفتنى على كل انسان ان المدنية المسلمين التي تكونت جبروتها في جزيرة العرب فتنفرت أفنانها في مدة قصيرة الأمد على أكثر بلاد المشرق لم يكن لها من سبب أولى غير الديانة الاسلامية ويتمكن كل انسان باستقراء التواريخ وعلوم العمران أن يستدل على أن هذه المدنية كانت أسرع المدنات سيرا وأكثرها بهجة وأوسعها بقاعا وأعجبها منبتا وأقواها امتلاكا لازمة ذويها وتأثيرا على أذهان متبعيها وانما كانت جامعة لناموس كل

السعادات الاجتماعية وهما العلم والعمل . هذه أمور يهديها النظر المجرد في تاريخ المسلمين في مبتدأ أمرهم ولمكننا الآن لو أجلسنا نظراً جولة صغيرة على جميع الأمم الإسلامية فلا نرى الا عكس ما كن عليه آبؤنا الأول . ترى نوا ميس الانحطاط سائرة بنا القهقري وأخذة في محو أهميتها شيئاً فشيئاً مع ان كل العناصر المكونة لمجتمعنا لم تزل تدعى الاسلام وتحافظ عليه بحفاظة الانسان على فؤاده . فهل ذلك مصداق لقول منطري فلاسفة هذا العصر من أن شأن الديانات عموماً تقييد الانسان من الرقي ومنع النفوس عن التدرج في معارج الكمال . كلا . فان أقل نظرة في حالة العرب في جهالتهم ووحشيتهم قبل الاسلام ثم في مدنيتههم وسرعة رقيهم بعده عالم يعده له مثيل عند سواهم تدلنا دلالة واضحة على كذب هذه المقولة . اذن هل هذا الاثر مصداق لقول معتدليهم من أن كل قاعدة مهما كانت عمدة للأمة ومرقية لاشأانها في عصر من العصور لم تحل من أن تكون محتوية على جرثومة تمنع الرقي في المستقبل لمضادتها السنة الزمنية والمناسبات . كلا . فانا درسنا أنهم نوا ميس الاسلام في كتابنا هذا درساً مدققاً فلم نره الا مطابقاً لقوانين الحياة البشرية ملائماً لقواعدها ورأيان رأى العين أنه لم يصنع للرقى حداً تقف النفوس عنده بل سن قواعدها و كسر كل قيد ووضعه المتشرعون الأول جهلاً منهم بسنن الحياة المستقبلية وأطلق كل خصائص النفس من اغلالها الأولى وترك اليها اعتنتها و لكن بعد أن نقلها الى جادة الاعتدال والحكمة ونحن لا نتظر أن يأتي زمان يقال فيه ان الاعتدال مذموم وان المحمود هو الانحراف أو التفريط . اذن ما هو السبب في تأخر المسلمين حتى عن مساواة آبائهم في عشرين فصائلهم . أمانحن فلا نجد السبب الا في هذا الأمر المهم ألا وهو سوء فهمنا معنى الدين وحمله على غير المراد منه واليك التفصيل .

اناقدر هنا في فصولنا السابقة بالاستناد على الآيات القرآنية والاحاديث النبوية وأحوال الجمعية الإسلامية الأولى ان غرض الاسلام الأول هو ترقية شأن

الإنسان ماديا وأديا على حسب ناموس الرقي العام الذي استدل عليه باستقراء
أحوال الإنسان وتطوراته وأنه لم يقادر صغيرة ولا كبيرة مما يطهر النفوس من
شوائبها ويصلحها لخدمة لاداء وظيفتها الأشار إليها ونبيه بالتعويل عليها وقد
تكمّلنا على كل هذا بتفصيل لم يجعل للشكوك محلا في الأذهان ولا للريب محالا
في الوجدان . ولكن بالقائه نظرة على مجموعنا الآن نرى سوادنا الأعظم لا يفهم
من الاسلام إلا أنه محض قواعد للعبادة ومجرد دعوات يتصد بها قضاء الحاجات
في الدنيا أو نوال الدرجات العلى في الآخرة ولا يعلمون منه الا الشهادة والصلاة
والصيام والزكاة والحج وأما ما فيه من آيات الحكمة ومهجرات الفضائل التي
بعثت الأمة العربية من جدد خلائها الأولى الى ذروة جلالها التاليه فقد
ضربوا عنقه فصاحم انها هي لباب الدين وزبدة الاسلام والغرض الوحيد من
اثره وتثريته .

جاء الاسلام موقفا بين مطالب النفوس من المقام المعنوي والمنازل الاخلاقية
وبين مطالب الجثمان من الاشياء المادية ليكون مثبته انسانا كاملا هادلا بين
مطالب طبيعياته موفقا بين آميال جوهريه فيقول الله (وقيل للذين اتقوا ماذا
أنزل ربكم قالوا خير الذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار
المتقين) ويقول رسوله صلى الله عليه وسلم (ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته ولا
آخرته لدنياه بل خيركم من أخذ من هذه وهذه) ولكن لوى سوادنا الأعظم
السكرع عن تدبر هذه الحكمة البالغة وتابعوا أهواء الأمم السابقة في فهم الدين
وزعموا انه محض عبادة ومتابعة عادة ولهم في ذلك افسكار ما أنزل الله بهامن
سلطان . يقول الله تعالى (ولا تنس نصيحتك من الدنيا) ويقول رسوله صلى
الله عليه وسلم (ان من فقه الرجل استصلاح معيشته وليس من حب الدنيا طلب
ما يصلحك) فاسدل الناس على هذه القواعد العليا أستار النسيان وزعموا من تلقاء
أنفسهم ان الدين هو عبارة عن التفرغ الكلي من علائق الدنيا والانقطاع

المطلق من كل الأميال البدنية . فعملوا كل هذا ولم يعلموا انه السرطان الذي
أباد الامم السابقة والطاعون الذي استأصل النحل المتقدمة ولكن كيف يتأني
لهم أن يعلموا ذلك وهم متزرون في محالهم جاهلين بسدائنيعيا بينهم وبين هذه الآية
(اذ لم يسروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى
الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) هذا الفهم السبي في معنى الدين
أذانا لي تغيير معنى التقوى عما كانت عليه في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم
وزمن أصحابه الكرام فالتقى على حسب دهما ثلثا الآن هو الرجل الذي خيم عليه
النجول والسكسل وترك الجود والعمل ولم يترك له في الدنيا أقل أمل وكان على
عمام الجهل باحوال الأواخر والأول والذي ان مشى كان على مهل وان جلس
كان في عنقه ميل وان دعى الى مهمة أو رثها للخلل والزلل . هذه هي صفة التقى
هنا كثرنا الآن وهو كبراء كل متأمل في أحوال سلفنا الصالح مغاير عمام
المغايرة لما كانوا عليه مناض له على خط مستقيم كيف لا وهو ذار رسول الله صلى
الله عليه وسلم وأصحابه وهم أئمة التقوى وأمثلة السكامل الديني كانوا كايعله الخاص
والعام و يرويه التاريخ للذات رجال الجود والعمل وأهل الشيم والمهم وقادة
العلم والعظم لم يتركوا مظنة للفخار الا ووردوها ولا راية للجد الا ورفعوها
حتى أعلاوا كلمة الحق على الأباطيل وقوضوا دعائم الجور والاضاليل عما يدل مطالع
سيرتهم على حمة لوصادمت الجبال اسهقتها مسمها أو لحظت الثريا لمحة ما يحقا . حمة
يقف أمامها غطاريف هذا العصر حيارى ولا تعد حمتهم بجانيها الاعجاز واقه صاروا .
حمة هرجت بنفوسهم الى سموات الرفعه هن دنيا الامور وسفاسف الاعمال
وعلت بهم عن التدنى للنجور وخسائس الاميال . حمة كما ذادتهم عن الزنوع في
عمو الشهوات بعثتهم الى منازل السكمالات وكجاردتهم عن وهاد الزلات حثتهم الى
تسليم نجاد المكرمات حتى صاروا ملائكة في صورة آدميين ونور اساطعوا لو كان
غلافه من طين . هذه هي التقوى التي رسها الاسلام لتبعه وخطها الذوبه

لا مازاء الآن من التقوى التي لو طبقت على الاسلام رأيناها عين الفجور ونفس
المحذور .

هذا الفهم السيئ في التقوى الذي أوقفناه فيه جهلنا بحقيقة الاسلام جعلنا نقسم
الناس الى قسمين قسم سميناهم أهل الدنيا وهم الذين يعملون لفلاح البلاد وصلاح
العباد سواء بصنائعهم اليدوية أو بأبحاثهم الفكرية . وقسم سميناهم أهل الآخرة وهم
الذين تركوا الدنيا جانبا وأوقفوا أنفسهم على الصلاة والصيام والشي في الطرقات
خلف الطبول وتحت الاعلام وانبنى على هذا التقسيم الوهمي الذي تأصلت جذوره في
العالم الاسلامي من منذ قرون عديدة أن أوقف أهل الدنيا أنفسهم لتعلم العلوم التي
عابها مدار السعادة المادية كما أوقف أهل الآخرة أنفسهم للاشتغال بالعلوم العبادية
فصار القسم الاول بهذا الاعتبار جاهلا للدين جهلا بوقعه في الشكوك والشبهات
وصار القسم الثاني جاهلا لدنيا وأمور حاجها لأدائها الى العمالية عن سياسة أحواله
المعيشية فوقع في العوز الذي أداه الى مديته ورافقه ما به و لو كان ذلك تحت ستار
رفيق وجاخر شفاف .

هذا التفريق بين الدين والدنيا مناقض تمام المناقضة لمبادئ الدين الاسلامي من كل
وجه ومعارض لأوامره بل ومهطل لأكثرها تعظيلا . قلنا فيما سبق ان الاسلام
هو الدين العام الذي يوفق بين مطالب النفس والجسم توفيقا لا يحصى منه لمن أراد أن
يستقيم على الجادة الحكيمة وأثبتنا ذلك بالأدلة القاطعة وقلنا ان الانقطاع للعبادة
ليس من مقررات الاسلام (من تبدل قلبه منا) وانه جاء لصلاح الدين والدنيا معا
(ربنا آتينا الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة) وعدا لله الذين آمنوا منهم وعملوا
الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم) . وأكذبا بالأدلة
الناطقة انه يحض على الكسب والعمل ويردع من الخمول والكسل بعبارات أشد
تأثيرا على الازهان من أقوال فلاسفة هذا الزمان وان الاعمال في نظره مرتبطة
بنية الفاعل ومقصده فان ترك الانسان المحرمات كلها وكان مقصده الرياء عد منافقا

موزورا وانفوى صالحا فأخطأ فيه كأن مثابا مجورا . قال عليه الصلاة والسلام
(انما الاعمال بالنيات) قال على رضى الله عنه ما معناه (من أخذوا الدنيا بما فيها
وأراد بها وجه الله فهو زاهد ومن ترك الدنيا وما فيها ولم يرد بها وجه الله فليس
بزاهد)

قلنا كل هذا أو ما يقرب منه في فصولنا المتقدمة وأقتضاه عليه الأدلة التي لا تقبل النقض
ونزيدها تحويل الانتظار الى أحوال الجمعية الاسلاميه الأولى فان افرادها لم يكونوا
منقسمين الى قسمين قسم دنيوى وآخر أخروى . بل يروى لنا التاريخ انهم كانوا
كلهم يداوواحدة في العمل للدين والدنيا معا فان أبا بكر وهو أول المسلمين يكن تاجرا
ولم يبطل مهنته الا حين تبوأ عرش الخلافة . وروى الامام أحمد بن حنبل ان
أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يتجرون في البر والبحر ويعملون في تغيلهم
واني أبو قلابه رضى الله عنه صديقه قاله في المسجد فقال له (لان أراك تطلب معاشك
خبر من أن أراك في زاوية المسجد) وكان عمر رضى الله عنه يقول (ما من موضع بأتينى
الموت فيه أحب الى من موطن أتسوق فيه لاهل أبيسع وأشتري . ذلك لأن النبي
صلى الله عليه وسلم كان يحثهم على العمل للدنيا كما يحثهم على العمل للآخرى فكان
يقول اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا وامل لآخرتك كأنك تموت غدا) ويقول (احرقوا
فان الحرق مبارك) ويقول (اطلبوا الرزق في خبايا الأرض) ويقول (تسعة أشهر
الرزق في التجارة ويقول (العبادة عشرة اجزاء تسعة منها في طلب الحلال) هذه هي
نصوص الديانة الاسلامية وأحوال جمعيتها الأولى في عدم التفريق بين الحاجيات
الدنيوية والدنيوية وهذا هو عين السبب الذي حث المسلمين في مبدأ أمرهم من الانقسام
الى حزب ديني وحزب دنيوى وهو الأمر الذي يوجد التحالف بين نزعات الامة ويشقى
التناقض في أغراضها فامتزجوا التضاغن والتباغض بين آحادها ونما عن كل عوامل
التأليف بينهم وعبروا الزمن يستحيل الأمر الى حدوث تلاطم بين هذين القسمين
تلاطما يفضى بالجمعية الى الفوضى الفكرية ومتى تأصلت تلك الفوضى تفككت

عوى الجامعة الاساسيه التي تربط اجزاء الامة بعضهم ببعض واخذوا يشعرون
بصرى ان الفساد على مجموعهم وسوء منقلبهم في مستقبلهم فاذا انتهى حال الامة
الى هذه الدرجة اخذ القسمان الدينى والادنى يتبادلان القاء المسؤولية على بعضهما
فينسب الدينون ذلك الفساد الطارى الى تهادى الكافة في شهواتهم البهيمية
ويعزوه الدينويون الى تقصير اساتذة الدين عن الارشاد والتقصير عن قمع ترغلات ذوى
الاهواء ويستمررون في هذه الملاحة الفارغة بينما تكون جرائم الفساد آخذة في
التعشي والانتشار جارية الامة أمامها الى مهاوى الدمار والبوار .

هذه هي حالة الامة الاسلاميه فانما بهدأ ن طرأ عليها من الحوادث ما نصم وحدتها
الاولى فلوقتها فيما وقع فيه الامم السابقة من الفصل بين الدين والدنيا وبين أهلها
أخذ كل فريق ينابذ الآخر ويلقى التبعة على هاتقه وأهل جيلنا الحاضر هو أكثر
الاجيال شعورا بضرورة فضائل الاسلام لبناء ما تهدم من مجدنا وأشد هاتق رعبا
لعلنا نثافي تقصيرهم عن الارشاد والتعليم على حسب مقتضيات الزمان الحاضر .
نعم اننا نشعر بتهويل النفوس الى انتشاق نسيمات الكمالات الاسلاميه المنعشة
لتبرأ مما تراكم عليها من جراح الفساد الاخلاقى الذى قد هم وطهم وساقى النشأة
الحديثة الى نقطة فقدت فيه الاحساس بالذنايا والادناس . نعم اننا نرى بوادر
ذلك الشعور والاهمة الا أننا نستمع من قرائنا الحرة لاجل أن نقول ان ذلك الشعور
لم يستكمل شرائطه الضرورية . فكأنى بالناس يريدون أن يعطروا السماء عليهم
هذه الفضائل الاسلاميه فتعمر قاصديهم ودانيهم وهم جالسون على أمرتهم
منصرفون عن كل ما يقرب ذلك الامل أو يجعله ممكنا . بل كأنى بهم يرون ان
تلك الفضائل لا يمكن تأمينا الا بواسطة رجال يلبسون شوكا خاصا من الالبسة أو
يقروا كتباً مخصوصة في العلوم . كلا فاننا نظننا ذلك فقد جئنا بحق عقولنا
وكنا كالكمالى يرون ولو يرقوا بكل حاجياتهم وهم قعود في دورهم المنزوية
كلا . ان الفضائل الاسلاميه التي كن يفهمها الاعرابى الخشوى في مدة

قصيرة لا تعسر مطلقا على نشأة هذه الأمة المتهذبة . أسس الاسلام لا يحتاج
 لاجل ان تنفذ الى القول الى جدال أو الى عميد بل هي قواعد سهلة المأخذ واضحة
 المسالك تشعير النفس هذ علمها بها بطمأنينة وراحة لا يستطيع التعبير عنها بوجه
 من الوجوه فان كان الرجل عالما بصحائق الكون وأراد ان يفسر سر تلك الطمأنينة
 التي صادت على نفسه فاستقرت بعد اضطرابها وهدأت بعد ثورتها فاعليه الآن
 ان يدبر في أسرار الخلق وفي تكاليف الحياة البشرية وفي النوااميس الناطقة
 السائدة على مجموع هذا الكون بأمسه وفي الغرض الذي يسعى اليه الانسان ونحما
 عنه ليرى بعينه هياتان تلك الأسس الاسلاميه على سهولتها وسرعة تفعل
 الجاهل لها هي المحجة الوحيدة التي توصل الانسان الى سعادة مادته ومعناه وراحة
 دينه وأتراحه وانها هي نفس المحجة التي خلق الانسان مطبوعا على تسهيلها عنه
 والتي يراها الآن علماء العالم على بعدتهم ويسعون في تذييل كل الصعوبات للوصول
 اليها . اذا كان هذا شأن أسس الاسلام من السهولة ومثانة القواعد فلماذا
 نقيا مكي على فقدائنا تلك القواعد ونشتكي من قصور المرشدين عن ابانتها مع انها
 مبسطة بامر ح عبارة وارق اشارة في القرآن الشريف وفي سنة رسول الله
 صلى الله عليه وسلم . هل يظن المسلمون ان الله تعالى لم ينزل القرآن الا ليفهمه
 رجال مخضوضون اولي قراء سردا وبدون تعقل على رؤس القبور وفي أوساط
 الطرقات اوليتي بألحان الغناء في ليالي الأفراح بين لفظ العرجيلات ودخان
 السجارات ؟ أم هل يظنون ان أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصح ان
 تنال الا قضاء الحوائج وحصول البركات في المنازل ؟ ليعلم المسلمون ان كل هذه
 الأمور تنافي الاسلام . وتساهد على استجلاب مخطط رب الاسلام . ان القرآن وهو
 مجتمع زبد الحكمة . وأحاديث رسول الله وهي خلاصة قوانين العمران لم يأسر
 الله بتدوينها في الطروس وتشريحها بين سائر طبقات الأمة الا لتسيروا حكمها
 ويتعمروا بها فانها ملك السعادت وسالك الحياتين وفي تازيج المسلمين أكبر

حجة على قولنا هذا . هاتحن شعرنا بالحاجة الى كالات الاسلام فما بالناسفة ودعن
 اخذنا جتنا منه كل على قدر استطاعته (ولانكاف نفسا الاوسعها) السنا الان
 كالكسالى يرون الفداء امام أعينهم وهم على شفا الهلاك من الجوع فيتنظرون
 انصباب الطعام الى أفواههم بدون متدأيديهم . أليس من العار المشين أن نصرف كل
 أوقاتنا في مطالعة روايات (أميل زولا) و (بول بورجيه) مع ضئنا بجزء من ذلك
 الزمن على مطالعة ذلك الكتاب الذي جمع بين دفتيه أمر هذا الوجود بأسره . انا
 ندعى التمدن والتطور ونغيب للتشبه بالتمدنين في الجري وراه اكتشاف مساتير الكون
 ونرمي القاعدين من باب التحول والموت الفكري ونخني رؤسنا أعما بنا بنظريات (سبنسر)
 في العمران و (جبتا وتيرس) في السياسة و (ريبوا) في الفلسفة حالة كوننا
 صارفين النظر عن تدبر أسرار ذلك الكتاب (القرآن) الذي لو أفنى علماء العالم كله
 أعمارهم في تدبر بدائعه وحكمه لما وصلوا الى جزء منها . لعلنا نخجل من الاشتغال
 بالأمور الدينية تقليد الغير ناخشة من أن نفهم بالقصور العقلي . ان كان كذلك
 فهو تقليد أعمى كان يغنينا عنه اجماله نظرنا قليلا في كتابنا المعاري لنعري أن الاسلام
 ليس بالدين الذي يأمر بالاتزواء والاستكانة أو بالتعصب مع الانغماس في المهابة
 أو باضناه الجسم في العبادة عما هو مناف لمطالب المدنية الحاضرة والمستقبل بل هو
 الدين الذي يأمر بالسكود والعمل ويحبب للانسان السؤدد وعلاوهمم ويهديه الى
 الفضائل والشيم كل ذلك بحكم لا تقارن حكم الفلاسفة بها الا كما يقارن نور المصباح
 بنور الشمس في رابعة النهار . فالتسكلم في الاسلام والحالة هذه لا يكون مرقدنا
 لا فكار قامت بتكذيبها الشواهد الحاضرة بل يكون ناطقاهن لسان الحكيم
 العليم بحكم لا يأتيا الباطل من بين يديها ولا من خلفها [بنظريات تصيح بالدلالة
 عليها السنة هذا الوجود الصامت . بقواعد لا يعترى ماخل ولا يعثور هازل
 باسم عليها قوم العززان ومنها يشرف الانسان على جنان العرفان . بانوار تنفذ
 الى صميم النوادر فتشرق فيه شمسا لا يخبوضياؤها ولا تنطمس لالاؤها تنير على المرء

خزون هذه الحياة الكدره وتفلأله عقدها العسره • تدأوى جراح الاقدار عما
أصابها من سهام الحوادث وتضمد روحها من طعنات الكوارث وتطرد عن النفوس
شياطين أوهامها وتظهرها من غاشيات أحلامها فتسكن بعد اضطرابها وتجعلها
تتجه الى سعادتها من بابها وتمزق دونها كثيف حجابها حتى تجعلها صالحة لأن
تطل على الملكوت الاهلى وتنال منه زبد العلم الأجلى .

ألا تنظر الى حالة العرب من الخشونة والجهالة والهجيمه قبل اشراق الاسلام عليهم
ثم الى مصيرهم بعده • ان الرجل منهم فى الجاهلية كان يذهب بابتته الى الفلاة وهى
هلى ذراعاه فيحفر لها حفرة وهى تنظر اليه وتحنوا بغوادها عليه فلا يجد فى نفسه
قوادا يحزن عليها وكان يدفنها حية بيديه ثم يذهب الى أهله فرحاً مسروراً كأنه لم
يفعل الا ما يستحق حسن السمعة ويغسل عنه وخر الشنعه • تدبر بعيشك الى
هذه القلوب القاسيه والاحساسات العاتيه ثم انظر اليهم بعد اعتناقهم للاسلام •
ترى ماذا • ترى رجالاً نالوا من العواطف الكريمة ما لم ينله رجل ربي فى مهد
الحكمة وغذى بلبان الرحمة • ترى أمثلة للشهامة والفضيلة وأساطين للسجاياء
للجليله او الاخلاق الجليله قاموا يعلمون فلاسفة الاخلاق بمناهم ومقامهم قصور
مادونوه فى أسفارهم • ترى أناساً نورهم بسعى بين أيديهم وفضلهم يفرق قاصيهم
ودانيهم يفضلون الملائكة تقوى ووقارا ويفوقون الا كثره همة وافتقاراً انظر
الى عمر بن الخطاب وهو الذى تعلم تاريخه فى زمن الجاهلية والى ماذا آل أمره بعد ان
أسلم يوضع وعشرين سنة آل أمره الى ادراك حكمه وسياسة وثبات أهزبها
الاسلام والمسلمين وحفظها اقوام ملكه العظيم عما يتصره عنه أكبر ملك تربي فى
مهاد التشريع ويكبدونه أعظم فيلسوف ولدى بهر الحكمة والسياسة •
و بلغ من رقة القواد والتقوى درجة كان يسمع الآية من كتاب الله فيغشى عليه منها
أو يعرض لاجلها أياماً عديدة • فكان التنبى عن هذا البيت

قسا فالاسد تنزع من يديه • ورق فنحن نقرع أن ينوبا

من أين حصل له هذا وبعثنا له . هل درس الاخلاق في مدارسها الكلية أم علم العمران في مجامعها العلمية أم السياسة على المنابر البرلمانية أم التشريع في المدارس الحقوقية . كلا . لا شيء من ذلك ولو لكانه كل يتلوا القرآن وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ويتدبر فيها ويسأل غيره فيما كان يتعسر عليه منهما . هذا رجل واحد قد ضرب بناه للمثالا لتري بعينيك سلطة الدين الاسلامي في احالة الطباع وسرعة تأثيره في تغيير اتجاه الترهات وفي تنوير أذهان أبنائه ومتبعيه . فبالاكتفاء بهذه الكنوز وراه ظهورنا ونظل نتساءل عن حكمة تدهلها وأخلاق تنصف بها وتقتنع بها خفافا المسبي بأن تلقى تبعة فسادنا على غيرنا ونمدر بشقاشق تسيئ حالنا وتبجح ما كنا تاركين حكم الله تعالى وسنن رسوله مقصورة على القبور والمدافن يتلوهم رجال لاخلاق لهم من العلم . هكذا نفعل كلنا الآن والله شهيد علينا حيث يقول (واخذوا القرآن عذرا فمؤذرا بل أنفسكم أجعينا)

خلاصة القول ان دواء المسلمين الوحيد هو أن يفهموا معنى الاسلام ويدركوا ان غرضه الأول هو ترقية حالتى الانسان المادية والادبية مع الارتباطهما ببعضهما ارتباطا كليا لا جمل أن تستطيع النفس أن تعرج الى ما أعد لها من مقاوم العلاج هروجا سريعا . وأن يفقهوا ان لفظة عبادة فى الاسلام لا تعنى فقط العبادة الجسمية من ركوع وسجود بل ان كل ما يفعله الانسان من ربه امر اينبنى عليه اصلاح لذاته أو لغيره أو للجمعية أو لبني نوعه . أولا لكائنات كلها هو في نظر الاسلام من أحسن أنواع العبادة وأشرف أحوال الطاعة لله جل وعز (ان المؤمن ليؤجر في كل شيء حتى في الائمة يرفعها الى امراته . والشاة ان رحمتها برحملة الله) حديثان شريفتان . وأن يدركوا ان الاسلام لا يعارض التقدم فى الصناعات والاكتشافات بل يحث عليها ويندب اليها ويؤاخذ المتعاسين عن مجاراة غيرهم فيها . هذه الاسس الاسلامية تنطق بتأييدها ما تمن الآيات القرآنية وألوف من الاحاديث النبوية وأحوال الجمعية الاسلامية الأولية حتى ان المرشد المنور يستطيع أن



Library of



Princeton University.



32101 077797213